وربك فكبر

[آية الكرسي.. سياحة في رحاب الكمال والجلال]

تقديم

الأستاذ. الدكتور عبد الحي الفرماوي

أستاذ التفسير وعلوم القرآن الكريم

إعداد

د. هاني درغـــام

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞۚ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيۡءٖ مِّنۡ عِلۡمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَۚ وَسِعَ كُرۡسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفۡظُهُمَاۚ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ ﴾

[البقرة ٢٥٥]

الإهداء

إلى النبي عليه الصلاة والسلام..

خاتم النبيين وإمام المتقين ورحمة للعالمين...

يا سيدي يا رسول الله.. لقد سمعت قولك: «**بلغوا عني ولو آية**»[1].

فهذه آية الكرسي بما فتح الله عزوجل فيها على عبده الضعيف الفقير أهديها إليك راجيًا من الله عز وجل أن ألقاك يا حبيبي يا رسول الله على الحوض فتسقيني من يدك الشريفة شربة لا أظمأ بعدها أبدًا.

---

(١) صحيح البخاري [٣٤٦١].

تقديم

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وآله ومن والاه.

وبعد،،

فبروح شفافة، ونفس نقية، وأسلوب رقراق، كتب هذا البحث..

الذي جاء مترعًا بحب من أهدي إليه، مكتسبًا بالمهابة والخشوع والجلال لمن كتب عن آية كرسيه سبحانه وتعالى.

وحينما أُرسل إليَّ هذا البحث القيّم لأقدم له: أشفقت على صاحبه من أن يقع فيما يقع فيه الكثيرون الذين يتعرضون للكتابة عمومًا عن القضايا العقائدية، وخصوصًا عن الذات العلية، وبالأخص في هذه الآية الجليلة القدر، العظيمة الشأن، الرفيعة المنزلة، التي لها حلاوة، وعليها طلاوة، والتي تنزل على القلب بردًا وسلامًا، والتي يسعد بها الفؤاد، وتأنس لها النفوس.

إلا أنه -وبعد البدء بالقراءة- وجدت الباحث قد وصل ابتداءًا إلى أن هذه الآية الكريمة، العظيمة، سيدة آي القرآن، احتوت على: توحيد الربوبية والألوهية، والخلق والتكوين، والذات والصفات والأسماء...!!

فشجعني ذلك على إتمام قراءة البحث...

فوصلت -بعد إتمام قراءته- إلى أنه: كتب بقلم العاشق للذات الإلهية، المتعبد لربه في محراب هذه الآية، الهامس في أسلوبه، المناجي لمعبوده، الداعي للتحلي بنور وهدايات هذه الآية العظيمة...

وقد جاء بحثه خاليًا من الحشو بقضايا العقيدة، وفلسفات المتفلسفين، نقيًا من

الشوائب التي يقع في مثلها الباحثون.

بل إنك لا تملك نفسك حينما تبدأ في قراءته إلا وتشدك: عفة لفظه، وجودة سبكه، وروعة معانيه، وإشراقات أنواره، وأنسام فيوضاته، حتى إنك لتجد حلاوة الإيمان في قلبك، وسرعة الامتثال في حياتك طعمًا طيبًا وشرابًا سائغًا، بل تجد لك فيه طريقا للجنة ممهدًا.

جزى الله كاتبه خيرًا، ونفعه ونفع به، إنه ولي ذلك والقادر عليه.

هذا.. وبالله التوفيق.

د. عبدالحي حسين الفرماوي
أستاذ التفسير وعلوم القرآن الكريم
بجامعتي أم القرى بمكة المكرمة - والأزهر الشريف بالقاهرة

الهدف من هذا الكتاب

[وربك فكبر]

إن الهدف الرئيس من هذا الكتاب هو أن يتعرف الإنسان على ربه وأن يزداد في قلبه المهابة والخشية والتعظيم لله عزوجل لينطلق المرء بعدها متوجها إلى ربه بقلبه وعقله وروحه وجوارحه وكيانه مستجيبا لدعوته [ففروا إلى الله] ليرتقي في مراتب الإحسان فيعبد الله كأنه يراه ويجتهد في التقرب إليه بما يحب ويجتنب ما يكرهه جل وعلا ويبغضه.. فلا يمكن أن تصل العبادة إلى أعلى كمالها إلا بتعظيم الله عزوجل واجلاله... فكلّما كان العبد أكثر تعظيمًا لله كلّما كان أقرب للتوحيد والإخلاص، وأبعد عن الشرك صغيره وكبيره وخفيّه وعلانيّه.

والمفتاح الرئيسي لغرس عظمة الله في القلوب هو:

التأمل والتفكر..

التفكر في أسماء الله الحسني وصفاته العليا..

التفكر في آيات الله في الأنفس والآفاق..

التفكر في نعم الله الظاهرة والباطنة.. الخاصة والعامة.

وإن من أعظم صور التأمل والتفكر هو تدبر أسماء الله تعالى وصفاته وأفعاله.

إن صفات الله تعالى وأسماءه الحسنى لها في نفس المؤمن إشراقة روحية يحس بها من صفا بالإيمان قلبه، وزكت بنور أسماء الله وصفاته نفسه، وتلذذ بالمعرفة بربه شعوره الداخلى ووجدانه..

إن من يطالع كتاب الله بتدبر وتأمل فإنه يري صفحات هذا الكتاب وقد إمتلأت بالحديث عن الله وصفاته وأفعاله.. وهذا ما قرره الإمام بن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (تأمل خطاب القرآن تجد مَلِكًا له الملك كله، وله الحمد كله، أزمّة الأمور كلها بيده،

ومصدرها منه، ومردّها إليه، مستويًا على سرير ملكه، لا تخفى عليه خافية في أقطار مملكته، عالمًا بما في نفوس عبيده، مطلعًا على أسرارهم وعلانيتهم، منفردا بتدبير المملكة، يسمع ويرى، ويعطي ويمنع، ويثيب ويعاقب، ويكرم ويهين، ويخلق ويرزق، ويميت ويحيي، ويقدّر ويقضي ويدبر، الأمور نازلة من عنده دقيقها وجليلها وصاعدة إليه، لا تتحرك ذرة إلا بإذنه ولا تسقط ورقة إلا بعلمه.. فتأمل كيف تجده يثني على نفسه، ويمجّد نفسه، ويحمد نفسه، وينصح عباده، ويدلهم على ما فيه سعادتهم وفلاحهم ويرغبهم فيه، ويحذرهم مما فيه هلاكهم، ويتعرف إليهم بأسمائه وصفاته، ويتحبب إليهم بنعمه وآلائه، فيذكّرهم بنعمه عليهم، ويأمرهم بما يستوجبون به تمامها، ويحذرهم من نقمه، ويذكّرهم بما أعد لهم من الكرامة إن أطاعوه، وما أعد لهم من العقوبة إن عصوه)[1].

ولعلنا -بفضل الله- نقف في هذا الكتاب مع آية من كتاب الله.. وأي آية؟! إنها أعظم آية في كتاب الله... إنها آية جمعت مظاهر العظمة كلها.. إنها آية الكرسي.. ندندن حولها.. نعيش في ظلالها.. نستضيء بأنوارها.. نتنسم عبيرها.. نسترشد بهديها، لعلها تؤتى فى النفوس ثمارها.. وعندها يتوجه المؤمن إلى الله وحده.. فله حبه.. ومنه خوفه.. وإليه رجاؤه وعليه توكله واعتماده.

* **شعاره...** ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ﴾ [الأنعام ١٦٢-١٦٣].

* **هتافه...** ﴿وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ﴾ [طه ٨٤].

* **مناجاته...** (فطرت حياتي على الفقر لـك وفكري وقلبي على العلم بـك ونفسي على حب ما قد وهبت وروحي على الأنس في حضرتك لذلك يا رب آمنت بك خضوعًا وحبًا وأسلمت لك رضيتك ربًا فأذللت قلبًا وروحًا ولبًا إلى عزتك

---

(١) الفوائد ص٣٦.

وأخضعت نفسي وفكري وحسي ووجهي ورأسي إلى قدرتك وسلمت أمري بجهري وسري وخيري وشري إلى حكمتك ومحياي ربي وغفران ذنبي وموتي وبعثي إلى رحمتك)[1].

(١) من ديوان آمنت بالله.. الشيخ عبدالرحمن حبنكة.

لماذا آية الكرسي؟

* كلما تكاثفت عليَّ سحب الهموم وأحاطت بي الأحزان والغموم وغلبتني الوساوس والظنون.. تأملت في آية الكرسي فوقع بصري على قوله تعالى ﴿ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾ فأحسست بها تهز قلبي وتزلزل كياني وتحطم أحزاني وكأنها تخاطبني: ربك عزوجل يتولي إمدادك ورعايتك ويتولي حفظك ونصرتك ويمسح آلامك ومتاعبك.. فإذا هزتك الأزمان، وطوقتك الحوادث، وحلت بك الكربات، فقل لقلبك: أتدري في كنف من أنت؟.. أنت في كنف وحمي الركن الذي لا يضام، والقوة التي لا تُرام، والعزة التي لا تُغلب.. حسبك ﴿ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾.

* كلما هممت بمعصية أو غلبتني شهوة أوغرتني نفسي الأمارة بالسوء فأوقعتني في شباك الهوي.. طالعت قول ربي في آية الكرسي ﴿لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ فإضطرب فؤادي وارتجفت أوصالي وتزلزلت جوارحي.. ويحك يانفس.. أتدرين من يراقبك؟.. من يطّلع على ظاهرك وباطنك؟ إنه الله عز وجل ﴿بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَكَفَرُوا۟ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ إِنَّهُۥ قَوِىٌّ﴾ [غافر ١٩] يا الله! حتى خائنة الأعين! الخائنة التي يظن الإنسان أنه وحده الذي يحسها ويعرفها، وألا أحد في الوجود كله يراها أو يفهمها؟ إنه لشعور رهيب أن تحس فجأة بأنك موضوع تحت المراقبة.. المراقبة الدقيقة التي لا تترك صغيرة من عملك ولا كبيرة إلا أحصتها وسجلتها عليك.

* كلما ضعفت في مواجهة الشدائد والأزمات وكدت أنهار أمام الخطوب والملمات.. فضاقت عليَّ السبل، وبارت الحيل، وتقطعت الحبال، وضاق الحال.. إذ بآية الكرسي توقظني من غفلتي وكأنها تعاتبني: هل نسيت الملك عزوجل الذي [لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾؟ أما علمت أن الملك سبحانه ﴿يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ﴾ [الرحمن ٢٩]..؟؟!

فهلا رفعت إليه شكواك؟! هلا قصدت باب مولاك؟!..

ويحك..

أنسيت ما خولك وأعطاك؟ أما خلقك فسواك؟.. أما ألهمك الإسلام وهداك؟.. أما قربك بفضله وأدناك؟.. أما بِره في طرفة عين يغشاك؟

• كلما ردد لساني قوله تعالى ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْعَظِيمُ﴾.. سارع قلبي وجوارحي بالسجود لله عز وجل.. ألا ما أروع السجود لعظمته.. فهو أقصى درجات العبودية، وأجل مظاهر التذلل، وأصدق دلائل الإذعان، أجمل رسائل الحب وأعذب مناظر الخشوع وأفضل أثواب الافتقار وهو انطراح للجبار، وتذلل للقهار.. إلهي.. سجد لك قلبي وخشعت جوارحي وهتف لساني معلنا أن العظمة لله، والكبرياء لله، والاستعلاء لله، والقوة لله، والجبروت لله، والملك لله، والعبودية لله.

فحقيق بآية احتوت على هذه الأسماء والصفات والمعاني الجليلة أن تكون أعظم آية في كتاب الله ويحق لمن قرأها بتدبر وتفهم أن يمتلئ من اليقين والعرفان والإيمان.

المقدمة

الحمد لله المتوحد بجلال البهاء.. المنفرد بدوام البقاء.. المتعالي عن الزوال والفناء.. المنزه عن الآباء والأبناء.. المرتدي برداء العظمة والكبرياء.. العليم الذي لايخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء...

والصلاة والسلام على نبي الإسلام وبدر التمام.. السراج المنير.. رحمة للعالمين

أما بعد...

إن الإنسان لا ينال درجة القرب من الله عز وجل إلا بعد أن يصطبغ بذل العبودية ولا يتأتي له ذلك إلا من خلال إيمانه بالله والتمسك بأوامره والإنتهاء عن نواهيه ولا يتأتي له هذا إلا بعد التفكر والتأمل في أسماء الله الحسني وصفاته العلي.

فالأسماء والصفات هي الوسائل التي تعرف الله بها إلى خلقه.. وهي النوافذ التي يطل منه القلب على الله مباشرة.. وهي التي تحرك الوجدان وتفتح أمام الروح آفاقًا فسيحة تشاهد فيها أنوار الله وجلاله.. وهي الروح التي يسير بها السالكون إلى الله تعالى وهي حاديْهم في سيرهم ومحركُ عزيمتهم إذا فتروا ومثير هممهم إذا قصروا..

وهذه المعرفة هي غذاء القلوب وبها تزكو النفوس وتطمئن القلوب وتنشط لطاعة الله بذكره ومحبته وعبادته وتعظيمه وتكبيره وحمده وشكره.

فمن كان بالله سبحانه وأسمائه وصفاته أعرف وفيه أرغب وله أحب وإليه أقرب وجد من هذه الحلاوة فى قلبه ما لا يمكن التعبير عنه ولا يعرف إلا بالذوق والوجد.. ومتى ذاق القلب ذلك لم يمكنه أن يقدم عليه حبًا لغيره ولا أنسابه وكلما ازداد له حبًا ازداد له عبودية وذلا وخضوعًا ورقًا له وحرية عن رق غيره.. فكلما أدام العبدُ النظر في أسماء الله والتأمل في صفاته ازدادت محبته لربه وإقباله على طاعته وتحققت له لذة عبادته فأنس بربه واشتاق إلى لقائه..

فعلى قدر المعرفةِ يكون تعظيم الربّ تعالى في القلب وأعرف النّاس به أشدّهم لله تعظيمًا وإجلالاً.

(إن عظمة الله تعالى أمر لا يمكن للعقول أن تتصوره، فضلاً عن أن تبلغ كنهه فهي أمر يضيق نطاق التعبير عن بيانه ويكل اللسان عن وصفه، ويعجز العقل عن التفكير فيه، فإله تفرد بالملك والملكوت، والحياة التي لا بداية لها ولا نهاية، والقيام بالذات والغني عن كل كائن في الوجود، والوجود الذاتي يمد بالوجود كل موجود.. لا ينام ابدًا ولا تأخذه حتى مجرد سنَة، له ما في السموات والأرض وما بينهما، هو الذي خلق كل شيءعليم محيط بكل شئ، فلا تخفي عليه خافية، يعلم ما في الغيب ويعلم عاقبة الأمور، قائم على هذا الوجود كله بالحفظ والتدبير لا صاحبة له ولا ولد ولا معين ولا مشير، لا يكون إلا ما أراد، فلا معقب لحكمة ولا راد لقضائه، مشيئته نافذة في الوجود كله، إذا أراد شيئًا فإنما يقول له كن فيكون. إله بلغ في المجد والشرف المنتهي إله بلغ الكمال في أسمائه وصفاته كلها، فهو السيد الذي كمل في سؤدده، والغنى الذى كمل في غناه، والعالم الذى كمل في علمه، والقادر الذى كمل في قدرته، والحليم الذى كمل في حلمه، والجبار الذى كمل في جبروته، وهكذا إلى آخر أسمائه تعالى وصفاته. إله له السمو والرفعة والكبرياء، ظاهر وعال فوق جميع مخلوقاته، جليل القدر، مهاب السلطة، كل من في السموات والأرض في قبضته، له الجلالة التي تدك الشامخ العالي، وله العزة التي ترفع شأن المطيع الموالى، من عرفه، خاف من جانبه، وعكف على بابه، ولم يرج إلا سواه، ولم يحب إلا إياه..

إله غمر بفضله وإحسانه كل حي في السموات والأرض.. إله هذه بعض صفاته وأوصافه، فكيف تكون عظمته؟ وكيف يكون هو؟ سبحانه العلي العظيم الذى ليس كمثله شيء)[1].

---

(١) المفاهيم المثلي في ظلال أسماء الله الحسني ص ٦٥-٦٦ بتصرف- وليد بن محمود بن حسن.

وإن مظاهر العظمة والجلال والكبرياء لتتجلي واضحة في آية الكرسي.. وما أدراك ما آية الكرسي؟!

* إنها آية تملأ القلب مهابة من اللهّ وعظمته وجلاله وكماله.. فقد اشتملت هذه الآية على توحيد الإلوهية وتوحيد الربوبية وتوحيد الأسماء والصفات وعلى إحاطة ملكه وإحاطة علمه وسعة سلطانه وجلاله ومجده وعظمته وكبريائه وعلوه على جميع مخلوقاته.. فهذه الآية بمفردها عقيدة في أسماء الله وصفاته.. متضمنة لجميع الأسماء الحسنى والصفات العلا.

* إنها (آية جليلة القدر.. عظيمة الشأن.. رفيعة المنزلة.. بعيدة المكانة لها حلاوة وعليها طلاوة.. تنزل على القلب برد وسلام.. يسعد بها الفؤاد.. تأنس لها النفوس.. تستروح بها الروح حبيبه إلى الرحمن حافظة للإنسان.. طاردة للشيطان.. حفظها أمن وأمان.. وقراءتها روح وريحان.. الترنم بها نعيم وسلوان)[1].

* إنها آية كلها تعظيم في تعظيم.. وثناء في ثناء.. (وهل أحد أحق بالثناء منه؟ وهل خُلق الإنسان وأعطي اللسان وعلم البيان إلا ليثني على الله ويمجد الله.. ويسبح الله.. ويذكر الله؟.. من أحق بالثناء منه؟ ومن أولى بالمدح منه؟.. ومن أجدر بالتمجيد منه؟)[2].

* إنها آية (جمعت أصول التوحيد كلها على أتم وجه وأبلغ أسلوب.. فكل جملة من جملها موصولة بالأخري من غير فاصل بينها بحرف من حروف العطف.. فهي كوكبة إيمانية تملأ القلوب نورا يهتدي به السالكون إلى سبل السلام.. حتي تنتهي بهم هذه السبل إلى الصراط المستقيم.. صراط الله الذي له ما في السماوات والأرض.. وهو التوحيد الخالص من كل شوائب الشرك الجلي والخفي)[3].

(١) الله أهل الثناء والمجد.. د. ناصر الزهراني ص١٦٠.
(٢) أسماء الله الحسني آثارها وأسرارها.. د. محمد بكر إسماعيل ص٢٥٨
(٣) أسماء الله الحسني آثارها وأسرارها.. د. محمد بكر إسماعيل ص٢٥٨

* إنها آية.. تدل على وحدانية الله تعالى بكل شعبها.. ذلك بأن الوحدانية لها شعب ثلاث:

وحدانية الألوهية: وقد دلت عليها بقوله تعالى: [الله لا إله إلا هو] وحدانية الخلق والتكوين: فلا خالق مع الله تعالى ولا إرادة تمنع إرادته وقد دل على ذلك بأكثر ما فى الآية الكريمة كقوله سبحانه: [الحي القيوم] وقوله تعالى: [له ما في السموات وما في الأرض].

وحدانية الذات والصفات: بمعنى أنه لا يشبهه شى أو أحد من خلقه [ليس كمثله شيء] وقد أشار سبحانه إلى ذلك بقوله تعالى: [لا تاخذه سنة ولا نوم] وبقوله تعالى [وهو العلي العظيم].

* إنها آية.. تضمنت من صفات الكمال والجلال ما يعجز اللسان عن وصفه منها:

* إثبات انفراده بالألوهية ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾.

* إثبات صفة الحياة لله -عز وجل- وأنها حياة كاملة لم تسبق بعدم ولا يلحقها زوال ولا توصف بنقص ﴿ٱلْحَىُّ﴾.

* إثبات القيومية لله عزوجل ﴿ٱلْقَيُّومُ﴾.

* كمال حياة الله وكمال قيوميته بحيث لا يعتريها أدنى نقص لقوله ﴿لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾.

* عموم ملك الله لقوله ﴿لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾.

* كمال سلطان الله لقوله ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾. وهذا غير عموم الملك فقوة السلطان وتمامه أكمل من عموم الملك

* إثبات الشفاعة بإذن الله تعالى لقوله ﴿إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾.

* إثبات الإذن وهو الأمر لقوله ﴿إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾.

* إثبات علم الله وأنه عام في الماضي والحاضر والمستقبل لقوله ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ

﴿أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡ﴾.

* إثبات مشيئة الله لقوله ﴿إِلَّا بِمَا شَآءَ﴾.

* اثبات الكرسي ﴿وَسِعَ كُرۡسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ﴾.

* إثبات قوة الله لقوله ﴿وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفۡظُهُمَا﴾.

* إثبات ما تتضمنه هذه الجملة ﴿وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفۡظُهُمَا﴾ وهي العلم والقدرة والحياة والرحمة والحكمة والقوة.

* إثبات علو الله الذاتي والصفتي لقوله ﴿وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ﴾.

* إثبات العظمة لله لقوله ﴿ٱلۡعَظِيمُ﴾.

الله.. الله.. ما أعظم آية الكرسي.. فوالله إن لها حلاوة وعليها طلاوة.. تنزل على القلب برد وسلام.. يسعد بها الفؤاد.. تأنس لها النفوس.

إنها آية تتلألأ بالأنوار الربانية.. فأين المبصرون؟ إنها آية تبصرك بمعالم الطريق في قافلة ﴿قَد تَّبَيَّنَ﴾ فأين السالكون المشمرون؟ إنها معين عذب متدفق.. فأين الواردون الشاربون؟ إنها سياحة في حديقة غناء تسر الناظرين يبتهج بما يري فيها من إشراقات الجمال وفيوضات التنزيه والتقديس والتمجيد. إنها سياحة في مواكب الجلال والجمال والكمال.. فأين الأعين الناظرة والقلوب المبصرة.. والأذهان المتوقدة.. والفطرة السليمة.. والمشاعر الحية والأحاسيس المرهفة؟

إنني أقدم هذا الكتاب عرفانًا بجميلك يا رب وشكرا لأفضالك.. فإنك تسمع كلامي.. وترى مكاني.. وتعلم سري وعلانيتي ولا يخفى عليك شيء من أمري.. أنا البائس الفقير.. المستغيث المستجير.. الوجل المشفق.. المقر المعترف بذنبه.. الطامع في رحمتك وعفوك..

يارب إن ثنائي عليك وتعظيمي وإجلالي لك نعمة منك ومنة من مننك على عبدك الفقير الذليل (فمن أنا حتى أمدحك؟!.. من أنا حتى أمجدك؟!.. من أنا حتى أثني

عليك؟! أنا الذي خُلقت من تراب أصف الملك الوهاب؟!

أنا الذي صُور من طين أذكر جلال رب العالمين؟!

إن الخجل يملأ فؤاد من خُلق من ماء مهين إذا قام يشدوا بأوصاف أحكم الحاكمين)[1].

اللهم تقبل مني هذا الكتاب واجعله خالصا لوجهك الكريم واجعلني برحمتك في زمرة المتقين ومن ورثة جنة النعيم ﴿مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا ﴾ [النساء ٦٩].

الفقير إلى عفو ربه هاني محمود درغام

(١) من مقدمة كتاب العظمة للشيخ عائض القرني.

الفصل الأول

آية الكرسي

ثناء.. تعظيم.. إجلال

فضل آية الكرسي

• آية الكرسي أعظم آية في كتاب الله:

روى الإمام مسلم في صحيحه بسنده عن أبى بن كعب ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: **يا أبا المنذر.. أتدري أي آية من كتاب الله أعظم؟** قال: قلت: الله ورسوله أعلم، قال: **يا أبا المنذر أتدرى أى آية من كتاب الله معك أعظم؟** قال: قلت «الله لا إله إلا هو الحى القيوم» قال: فضرب بصدرى وقال: **والله ليهنك العلم أبا المنذر.**

• آية الكرسي حصن منيع لقارئها:

روى البخاري في صحيحه بسنده عن أبي هريرة ﵁ قال وكلني رسول الله ﷺ بحفظ زكاة رمضان فأتاني آت فجعل يحثو من الطعام فأخذته وقلت: والله لأرفعنك إلى رسول الله ﷺ قال: إني محتاج وعلي عيال ولي حاجة شديدة، قال: فخليت عنه فأصبحت فقال النبي ﷺ: «**يا أبا هريرة ما فعل أسيرك البارحة**» قال: قلت: يا رسول الله شكا حاجة شديدة وعيالاً فرحمته فخليت سبيله قال: «**أما إنه قد كذبك وسيعود**» فعرفت أنه سيعود لقول رسول الله ﷺ: «**إنه سيعود**».. فرصدته فجاء يحثو من الطعام فأخذته فقلت: لأرفعنك إلى رسول الله ﷺ قال: دعني فإني محتاج وعلي عيال لا أعود فرحمته فخليت سبيله، فأصبحت فقال لي رسول الله ﷺ: «**يا أبا هريرة ما فعل أسيرك**». قلت: يا رسول الله شكا حاجة شديدة وعيالا فرحمته فخليت سبيله، قال: «**أما إنه كذبك، وسيعود**».. فرصدته الثالثة فجاء يحثو من الطعام فأخذته فقلت: لأرفعنك إلى رسول الله وهذا آخر ثلاث مرات تزعم لا تعود ثم تعود، قال: دعني أعلمك كلمات ينفعك الله بها، قلت ما هو؟ قال: إذا أويت إلى فراشك فاقرأ آية الكرسي: ﴿الله لا إله إلا هو الحي القيوم﴾ حتى تختم

الآية فإنك لن يزال عليك من الله حافظ ولا يقربنك شيطان حتى تصبح فخليت سبيله فأصبحت فقال لي رسول الله ﷺ: «**ما فعل أسيرك البارحة**». قلت: يا رسول الله زعم أنه يعلمني كلمات ينفعني الله بها فخليت سبيله قال: «**ما هي**».. قلت: قال لي: إذا أويت إلى فراشك فاقرأ آية الكرسي من أولها حتى تختم: ﴿الله لا إله إلا هو الحي القيوم﴾ وقال لي: لن يزال عليك من الله حافظ ولا يقربك شيطان حتى تصبح وكانوا أحرص شيء على الخير فقال النبي ﷺ: «**أما إنه قد صدقك وهو كذوب.. تعلم من تخاطب منذ ثلاث ليال يا أبا هريرة**» قال: لا، قال: «ذاك شيطان».

• قارئها دبر كل صلاة في ذمة الله:

روى الطبراني في المعجم الكبير وفي كتاب الدعاء بسنده عن عبد بن حسن بن حسن بن علي عن أبيه عن جده قال: قال رسول الله ﷺ: «**من قرأ آية الكرسي في دبر الصلاة المكتوبة كان في ذمة الله عزوجل حتى الصلاة الأخرى**»[1].

• قارئها دبر كل صلاة من أهل الجنة:

روى الطبرانى والنسائى وابن حبان وابن السنى وغيرهم عن أبى أمامة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**من قرأ آية الكرسي دبر كل صلاة مكتوبة لم يمنعه من دخول الجنة إلا أن يموت**»[2].

• اشتمال آية الكرسي على اسم الله الأعظم:

روى الإمام أحمد في مسنده بسنده عن أسماء بنت يزيد رضي الله عنها قالت سمعت رسول الله ﷺ يقول في هاتين الآيتين: [لم اللهُ لاَ إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّوم] و[اللهُ لاَ إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ

---

(١) كتاب الدعاء للطبراني –ح ٦٧٤- ٢ / ١١٠٣ والمعجم الكبير للطبرانى ٣/ ٨٤ وقال في المجمع ٢ / ١٤٨ رواه الطبراني في الكبير وإسناده حسن.
(٢) صححه الشيخ الألباني في صحيح الجامع [٦٤٦٤].

الْحَيُّ الْقَيُّوم] إن فيهما اسم الله الأعظم.

مما سبق يتضح لنا فضل الآية الكريمة وما فيها من ثمرات ونفحات يحظى بها من داوم على قراءتها.. فهذه الآية جامعة لمعان يستحضرها المؤمن كلما قرأها فيزداد إيمانًا وتسليمًا ويقينًا وتثبيتًا وهداية ومعرفة وارتقاء وسموّا في معارج القبول ومدارج الوصول ومراقي القرب ومنازل الوداد والحب كلما قرأ آية الكرسي وجال في أرجائها وطاف في آفاقها ازداد حصانة ومنعة وحفظا من إبليس اللعين وجنوده وأعوانه من الشياطين.

حقًا إنها آية عظيمة لعظمة ما ورد فيها من تعظيم لله جل جلاله.. وهى آية عظيمة لما لقارئها من الأجر العظيم لأنها له حرز وحصن منيع ودعوة المصطفي ﷺ بالمحافظة عليها عقب كل صلاة لما فيها من معان يحتاج المؤمن إلى استحضارها واستذكارها بلسانه وعقله وقلبه وسائر جوارحه.

ما أحوج المسلم إلى أن يعيش في ظلالها ويحيا بتعاليمها ويسمو باستظهارها والتدبر فيها.. وقارئها في حفظ الله ورحمته وفي كنفه وذمته قريب من جنته ليس بينه وبينها إلا الموت... والموت مرحلة انتقالية من دار الدنيا إلى دار الآخرة.. من دار الفناء إلى دار البقاء.. من دار العمل إلى دار الجزاء.. من دار الممر إلى دار المقر.

اللّه لا إله إلا هو

الله

اللّه...

(أحسن الأسماء.. وأجمل الحروف.. وأصدق العبارات.. وأثمن الكلمات ﴿هَلۡ تَعۡلَمُ لَهُۥ سَمِيّٗا﴾.

اللّه...

اللطف والعناية.. الغوث والمدد.. الود والإحسان.

اللّه...

إليه يصعد الكلم الطيب والدعاء الخالص والهاتف الصّادق والدمع البريء... إليه تُمدُّ الأكف في الأسحار.. والأيادي في الحاجات.. والأعين في الملمّات.. والأسئلة في الحوادث.

اللّه...

باسمه تشدو الألسن وتستغيث وتلهج وتنادي.. وبذكره تطمئن القلوب وتسكن الأرواح وتهدأ المشاعر وتبرد الأعصاب ويثوب الرشْد ويستقر اليقين)[1].

اللّه...

هو المتفرد بالألوهية لجميع الخلائق فلا معبود بحق في الوجود إلا هو «وأوصاف الألوهية هي جميع أوصاف الكمال وأوصاف الجلال والعظمة والجمال وأوصاف الرحمة والبرِّ والكرم والامتنان فإنَّ هذه الصفات هي التي يستحق أن يُؤلَهَ ويُعبد

---

(١) لا تحزن ص٣٢.. د. عائض القرني.

لأجلها...

فيؤله لأنَّ له أوصافَ العظمة والكبرياء..

ويؤله لأنَّه المتفرِّد بالقيُّومية والربوبية والمُلك والسلطان..

ويؤله لأنَّه المتفردِّ بالرحمة وإيصال النِعم الظاهرة والباطنة إلى جميع خلقه ويؤله لأنَّه المحيط بكلِّ شيء علمًا وحُكْمًا وحكمةً وإحسانًا ورحمةً وقدرةً وعزةً وقهرًا..

ويؤله لأنَّه المتفردِّ بالغنى المطلق التام من جميع الوجوه كما أنَّ ما سواه مفتقر إليه على الدوام من جميع الوجوه.. مفتقر إليه في إيجاده وتدبيره.. مفتقر إليه في إمداده ورزقه.. مفتقر إليه في حاجاته كلِّها.. مفتقر إليه في أعظم الحاجات وأشد الضرورات وهي افتقاره إلى عبادته وحده والتأله له وحده[1].

الله...

لفظ الجلالة علم على الذات الإلهية وهو اسم تفرد به الله سبحانه واختصه لنفسه ووصف به ذاته وقدمه على جميع أسمائه وأضاف صفاته كلها إليه ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا فَٱعۡبُدۡهُ وَٱصۡطَبِرۡ لِعِبَٰدَتِهِۦۚ هَلۡ تَعۡلَمُ لَهُۥ سَمِيّٗا﴾ [مريم ٦٥].

الله...

أحق من ذُكر.. وأحق من عُبد.. وأحق من حمد.. وأولى من شكر وأرأف من ملك.. وأجود من سئل.. وأعفى من قدر.. وأكرم من قصد.. وأعز من التجيء اليه وأكفي من توكل عليه.. أرحم بعبده من الوالدة بولدها وأشد فرحا بتوبة عباده التائبين من الفاقد لراحلته التي عليها طعامها وشرابه في الارض المهلكة اذا يأس من الحياة فوجدها.. حلمه بعد علمه وعفوه بعد قدرته ومغفرته عن عزته ومنعه عن حكمته وموالاته عن احسانه ورحمته.

(١) فتح الرحيم الملك العلام في علم العقائد والتوحيد والأخلاق ص٢٠.. الشيخ عبد الرحمن السعدي.

الله...

(لا تسكن الأرواح إلا بحبه، ولا تطمئن القلوب إلا بذكره، ولا تزكو العقول إلا بمعرفته، ولا يُدْرك النجاح إلا بتوفيقه، ولا تحيا القلوب إلا بنسيم لطفه وقربه ولا يقع أمر إلا بإذنه، ولا يهتدي ضال إلا بهدايته، ولا يستقيم ذو أَوَدٍ إلا بتقويمه، ولا يفهم أحد إلا بتفهيمه، ولا يُتَخلص من مكروه إلا برحمته، ولا يُحفظ شيء إلا بكلاءته، ولا يُفتتح أمر إلا باسمه، ولا يتم إلا بحمده، ولا يُدْرك مأمول إلا بتيسيره، ولا تنال سعادة إلا بطاعته، ولا حياة إلا بذكره ومحبته ومعرفته، ولا طابت الجنة إلا بسماع خطابه ورؤيته، الذي وسع كل شيء رحمة وعلمًا، وأوسع كل مخلوق فضلاً وبرًا)[١].

الله...

(لا يفزع العبد ولا يلجأ إلا إليه لأنه لا مجير حقيقة إلا هو ولا ناصر حقيقة إلا هو.. وهو الذي يلجأ إليه العبد بكل ذرة في كيانه التجاء شوق ومحبة فهو سبحانه الكامل في ذاته وصفاته فلا يأنس إلا به ولا يفتر عن خدمته ولا يسأم من ذكره أبدًا.. يكاد قلبه أن يتفتت من فرط محبته له وتعلقه به.. وهو الذي يخضع له العبد ويذل وينقاد تمام الخضوع والذل والانقياد فيقدم رضاه على رضا نفسه في كل حال ويبعد وينأى عن سخطه بكل طريق هذا مع تمام الرضا والمحبة له سبحانه)[٢].

الله...

السيد الذي قد كمل في سؤدده.. والشريف الذي قد كمل في شرفه والعظيم الذي قد كمل في عظمته.. والحليم الذي قد كمل في حلمه.. والعليم الذي قد كمل في علمه.. والحكيم الذي قد كمل في حكمته.. وهو الذي قد كمل في أنواع الشرف

---

(١) الله أهل الثناء والمجد ص٣٧.. د. ناصر الزهراني.
(٢) المفاهيم المثلي في ظلال شرح أسماء الله الحسني ص١٤.

والسؤدد.. هذه صفته لا تنبغي إلا له.. ليس له كفء وليس كمثله شيء.. سبحان اللهّ الواحد القهار.

الله...

ما ذُكِر هذا الاسم في قليل إلا كثّره.. ولا عند خوف إلا أزاله ولا عند كرب إلا كشفه.. ولا عندَ هَمٍّ وغَمٍّ إلا فَرَّجَه.. ولا عند ضِيقٍ إلا وَسَّعه ولا تعلَّقَ به ضعيف إلا أفاده القوة.. ولا ذليل إلا أناله العِزَّ.. ولا فقير إلا أصاره غنيا.. ولا مُسْتَوْحِشٍ إلا آنسه.. ولا مغلوب إلا أيده ونصره.. ولا مضطر إلا كشف ضرَّه.. ولا شريد إلا آواه.. فهو الاسم الذي تُكشَف به الكُربات.. وتُستَنْزَل به البَرَكَات والدعوات.. وتُقَالُ به العثرات.. وتُسْتَدْفَع به السيئات.. وتُسْتَجْلَب به الحسنات.

الله...

هو سبحانه رب كل شيء ومليكه.. لا إله غيره ولا رب سواه.. مالك كل شيء ورب كل شيء..

* له وحده ربوبية الخلق والإيجاد والتدبير ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٞ﴾ [الزمر ٦٢].

* وله وحده ربوبية التعليم والإرشاد ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ١ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ٢ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ٣ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ٤ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ﴾ [العلق ١-٥].

* وله وحده ربوبية التمليك والإمداد ﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا﴾ [البقرة ٢٩].

* وله وحده ربوبية التسخير ﴿أَلَمۡ تَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَأَسۡبَغَ عَلَيۡكُمۡ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةٗ وَبَاطِنَةٗ﴾ [لقمان ٢٠].

* وله وحده ربوبية التكريم والاستخلاف ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَكُمۡ خَلَٰٓئِفَ ٱلۡأَرۡضِ وَرَفَعَ بَعۡضَكُمۡ فَوۡقَ بَعۡضٖ دَرَجَٰتٖ لِّيَبۡلُوَكُمۡ فِي مَآ ءَاتَىٰكُمۡ﴾ [الأنعام ١٦٥].

الله...

﴿ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴾ [الأنعام ١٠٣].

الله...

﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ [الحديد ٤].

الله...

﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ [يونس ٥].

الله...

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [النحل ١٤].

الله...

﴿أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٣﴾ أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ

وَٱلۡأَرۡضِۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ قُلۡ هَاتُواْ بُرۡهَٰنَكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴾ [النمل ٦٠ -٦٤].

اللّه...

سبحانك لا نحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك.. وكيف نحصي خصائص اسم لمسماه كل كمال على الإطلاق، وكل مدح وحمد، وكل ثناء وكل مجد، وكل جلال وكل كمال، وكل عز وكل جمال، وكل خير وإحسان، وجود وفضل وبر، فله ومنه.

اللّه...

يا أنيسي عُدّتي واعتمـادي	**وملاذي في ظلمة النائبــات**
وسروري وبهجتي ورجـائي	**وضيائي في مدلج الحالكات**

اللّه...

يا أعــذب الألــفــاظ فــي لغتــي	**ويـا أجـلّ حــروف في معـانيهـا**
يا أمتع الأسماء كم سعدت نفسي	**وفــاض ســروري حيــن أرويـهـا**

اللّه...

[قل للطبيب تخطفته يد الردى ياشافي الأمراض: من أرداكا؟

قل للمريض نجا وعوفي بعد ما عجزت فنون الطب: من عافاكا؟

قل للصحيح يموت لا من علة من بالمنايا ياصحيح دهاكا؟

قل للجنين يعيش معزولا بلا راع ومرعى: مالذي يرعاكا؟

قل للوليد بكى وأجهش بالبكاء لدى الولادة: مالذي أبكاكا؟

وإذا ترى الثعبان ينفث سمه فاسأله: من ذا بالسموم حشاكا؟

وأسأله كيف تعيش ياثعبان أو تحيا وهذا السم يملأ فاكا؟

وأسأل بطون النحل كيف تقاطرت شهدًا وقل للشهد من حلاَّكا؟

بل سائل اللبن المصفى كان بين دم وفرث مالذي صفاكا؟

وإذا رأيت الحي يخرج من حنايا ميت فاسأله: من أحياكا؟] [1]

إن معرفة الله عز وجل حق المعرفة تسكب في القلب طمأنينة وسعادة وراحة ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ ﴾ [الرعد ٢٨].

(نعم... إنها الطمأنينة إلى الله.. إنها قمة المشاعر الإيمانية وأروع ثمارها الطمأنينة إلى الله وقدره.. وإلى كل ما يأتي من عند الله.. الطمأنينة إلى معية الله.. الطمأنينة إلى أن الله مع المؤمن في كل لحظة لا ينساه ولا يقلاه حتي في ساعة العسرة.. حتي في ساعة المحنة.. حتى في ساعة العذاب)[2].

(فكم دعا الإنسان ربه فأجاب دعاءه.. وكم ناداه فلبي نداءه.. وكم سأله فأعطاه.. وكم توكل عليه فكفاه.. وكم من مرض شفاه منه.. وكم من ألم خففه عنه.. وكم من رزق ساقه إليه.. وكم من كربة فرجها.. وكم من غمة كشفها)[3].

أخي الفاضل.. أختي الفاضلة..

إنه الله جل جلاله.. من تقرب إليه شبرًا تقرب إليه ذراعًا.. ومن تقرب إليه ذراعًا تقرب إليه باعًا.. ومن أتاه يمشي أتاه هرولة.. من أقبل إليه تلقّاه من بعيد.. ومن أعرض عنه ناداه من قريب.. ومن ترك من أجله أعطاه فوق المزيد.. ومن أراد رضاه أراد ما يريد.. ومن تصرف بحوله وقوته ألان له الحديد.. أهلُ ذِكْرِه هم أهل مجالسته.. وأهل شكره هم أهل زيادته.. وأهل طاعته هم أهل كرامته.. وأهل

---

(١) للشاعر إبراهيم علي بديوي.

(٢) دراسات قرآنية ص١٨١-١٨٢.. محمد قطب.

(٣) العقائد الإسلامية ص٤١.. السيد سابق.

معصيته لا يقنّطهم من رحمته إن تابوا إليه فهو حبيبهم وإن لم يتوبوا فهو رحيمٌ بهم يبتليهم بالمصائب ليطهرهم من المعايب.. الحسنة عنده بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعافٍ كثيرة والسيئة عنده بواحدة.. فإن ندم عليها واستغفر غفرها له.. يشكر اليسير من العمل ويغفر الكثير من الزلل.

أخي في الله...

ألا يستحق الله أن تتعب لكي ترضيه؟..

ألا يستحق ربك أن تهاجر إليه بقلبك وجوارحك؟..

ألا تستحي من مولاك يدعوك ليغفر لك ويرحمك وهو الغني عنك فتعرض عنه وأنت أحوج إليه؟

عجبًا لك أيها الإنسان... ﴿قُتِلَ ٱلۡإِنسَٰنُ مَآ أَكۡفَرَهُۥ﴾ [عبس ١٦].

إلى متى الصدود عن طاعة المعبود؟

متى تتوقف عن هذا النكران والجحود؟

أما ترى تتابع نعم الله عليك بلا حدود؟

أخبرني إذًا متى ترجع إلى ربك.. متى تعود؟

حقًا ﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٞ﴾ [العاديات ٦]

ألا تأملت في أرجاء هذا الكون الفسيح لتري عظمة ربك الواسعة..

ف (إذا ما اتجه الفكر في السماوات حيث انتشرت النجوم في الليل وإذا ما كلّ البصر فيما لا نهاية له في الآفاق المظلمة.. وإذا ما خشعت النفس خشعتها من رهبة السكون الشامل.. فإنك تشرف بوجهك الكريم من خلال هذه الآفاق وتُسمِع صوتك في السكون وتمس بعظمتك النفس الخاشعة المطمئنة... حينئذ تبدو الآفاق المظلمة كأنها باسمة مشرقه ويتحول السكون إلى نبرات مطربة وتنبعث من كل

صوب وحينئذ تتغنى النفس الخاشعة لتقول:

أنت أنت الله

وإذا ما كان المتأمل على شاطئ البحر الخِضم وأرسل الطرف بعيدًا حيث تختلط زُرقة السماء بزرقة الماء وحيث تنحدر شمس الأصيل رويدًا رويدًا كأنها الإبريز المسجور لتغيب في هذا المتسع المِلحِ الأجاج وحيث تتهادى الفلك ذات الشراع الأبيض في حدود الأفق الملون بألوان الشفق كأنها طائر يسبح في النعيم إذ ذاك يشعر المتأمل بعظمة واسعة.. عظمة البحر الواسع وإذ ذاك تقر العين باطمئنان الفلك الجاري على أديم الماء الممهد وفي رعاية الله الصمد حيث تكون مظهر العظمة وحيث تطمئن النفس لرؤية ما تطمئن إليه في منظر جميل.

إذ ذاك يدق الفؤاد بدقات صداها في النفس:

أنت أنت الله

وإذا ما انطلقت السفينة بعيدًا في البحر اللجّي وهبّت الزوابع وتسابقت الرياح وتلبد بالسحب الفضاء واكفهرّ وجه السماء وأبرق البرق وأرعد الرعد وكانت ظلمات بعضها فوق بعض ولعبت بالسفينه الأمواج وأجهد البحار جهده وأفرغ الربان حيلته وأشرفت السفينة على الغرق وتربص الموت من كل صوبٍ وحدب إذ ذاك يشق ضياؤك هذه الظلمات والمسالك وتحيط رأفتك بهذه الأخطار والمهالك وتصل بحبال نجدتك المكروبين البائسين وإذ ذاك يردد القلب واللسان:

أنت أنت الله

وإذا ما اشتد السقم بمن أحاطت به عناية الأطباء وسهر الأوفياء ونام بين آمال المخلصين ودعوات المحبين ثم ضعفت حيلة الطبيب ولم ينفع وفاء الحبيب واستحال الرجاء إلى بلاء.. إذ ذاك تتجلى مستويًا على عرش عظمتك والنواصي خاشعة والنفوس جازعة والأيادي راجفة والقلوب واجفة لتقول أنا قضيت ويقول

الطبيب والقريب والحبيب لك الأمر:

أنت أنت الله

وإذا ما باين الدنيا إنسان وباينته وإذ ينظر إلى المال فيلقاه فانيًا وإلى الجاه فيلقاه ذاويًا وإلى الأماني فيلقاها زائلة وإلى الآمال فيجدها باطلة وإلى الشهوات فيجدها خادعة كاذبة وإلى المسرات فيجدها آفلة غاربة.. إذ ذاك يستغني عن الجاه والمال وتشل في نفسه حركة الآمال.. وبين جاه يدول وأمل يزول لا يملأ فراغ النفس إلا ذكرك:

أنت أنت الله

وإذا ما وقعت العين على زهرة تتفتق في الأكمام أوتلاقت العين بعين يملؤها الحين والابتسام.. وإذا أعجب المعجبون بجمال الفجر المتنفس وتغريد الطير المتربص وعاود الصدر انشراحه وملأ القلب ارتياحه.. إذ ذاك يشرق في قلوبنا نورك الجميل فنراك:

أنت أنت الله

فيما يمس النفس من مظاهر العظمة ومظاهر السعة ومظاهر الرحمة ومظاهر القدرة والقضاء ومظاهر الدوام والبقاء ومظاهر الجمال والجلال.. اعتاد الناس أن يصفوك بالعظيم والواسع والرحيم والقادر والدائم والجميل والجليل وأوتار القلوب تردد:

أنت أنت الله

أنت أنت الله)[1].

---

(١) من خواطر نفس للدكتور منصور فهمي نقلا من كتاب عقيدة المسلم ص ٩٥-٩٦ للشيخ محمد الغزالي.

لا إله إلا هو

• **لاَ إِلَـهَ إِلاَّ هوَ...**

أي لا معبود بحق سواه فهو الإله الحق الذي تتعين أن تكون جميع أنواع العبادة والطاعة والتأله له تعالى لكماله وكمال صفاته وعظيم نعمه ولكون العبد مستحقًا أن يكون عبدا لربه ممتثلاً أوامره مجتنبًا نواهيه وكل ما سوى الله تعالى باطل.. فعبادة ما سواه باطلة لكون ما سوى الله مخلوقًا ناقصًا مدبرًا فقيرًا من جميع الوجوه فلم يستحق شيئًا من أنواع العبادة.

• **لاَ إِلَـهَ إِلاَّ اللّه...**

(إنها الكلمة التي قامت بها الأرض والسماوات.. وخلقت لأجلها جميع المخلوقات.. وبها أرسل الله تعالى رسله وأنزل كتبه وشرع شرائعه ولأجلها نصبت الموازين ووضعت الدواوين وقام سوق الجنة والنار.. وبها انقسمت الخليقة إلى المؤمنين والكفار والأبرار والفجار.. فهي منشأ الخلق والأمر والثواب والعقاب.. وهي الحق الذي خلقت له الخليقة.. وعنها وعن حقوقها السؤال والحساب وعليها يقع الثواب والعقاب وعليها نصبت القبلة وعليها أسست الملة ولأجلها جردت سيوف الجهاد.. وهي حق الله على جميع العباد فهي كلمة الإسلام ومفتاح دار السلام وعنها يسأل الأولون والآخرون.. فلا تزول قدما العبد بين يدي الله حتى يسأل عن مسألتين ماذا كنتم تعبدون وماذا أجبتم المرسلين؟)[1].

• **لاَ إِلَـهَ إِلاَّ اللّه...**

(أول كلمة يدخل بها الإنسان بوابة الإسلام ويصل إلى مدارج التوحيد ويرتقي

---

(١) زاد المعاد ج١ ص١١-١٢.. الإمام ابن القيم.

في مراقي العبودية.. بموجبها يعترف العبد لله عز وجل وحده بالربوبية والألوهية وأن يشهد العبد أن الله هو المستحق للعبادة وأن تنصرف قواه -قوى عقله وقلبه وبدنه وجوارحه - في التسبيح والتهليل والتمجيد والعبودية لهذا الإله العظيم الذي أنت أيها الإنسان بعض فضله وبعض خلقه.. فكل ذرَّات كيانك الداخلية تعترف به وتمجِّده وتسبِّحه.. شئت أم أبيت.. غفلت أم انتبهت.. حييت أم مِتَّ.. آمنت أو كفرت.. فيبقى اختيار الإنسان أن يعبد ربه سبحانه وتعالى طوعًا بما أمره الله تعالى وبما جاء على ألسنة رسله المكرمين عليهم الصلاة والسلام)[١].

• لاَ إِلَـهَ إِلاَّ اللّه...

(روح هذه الكلمة وسرها: إفراد الرب جل ثناؤه وتقدست أسماؤه وتبارك اسمه وتعالى جده ولا إله غيره بالمحبة والإجلال والتعظيم والخوف والرجاء وتوابع ذلك من التوكل والإنابة والرغبة والرهبة.. فلا يُحب سواه وكل ما يحب غيره فإنما يحب تبعا لمحبته وكونه وسيلة إلى زيادة محبته ولا يُخاف سواه ولا يُرجى سواه... ولا يُتوكل إلا عليه ولا يرغب إلا إليه ولا يُرهب إلا منه ولا يُحلف إلا باسمه ولا يُنذر إلا له ولا يُتاب إلا إليه ولايطاع إلا أمره ولا يحتسب إلا به ولا يستعان في الشدائد إلا به ولا يُلتجأ إلا إليه ولا يُسجد إلا له ولا يُذبح إلا له وباسمه ويجتمع ذلك في حرف واحد وهو:

(أن لا يُعبد إلا إياه بجميع أنواع العبادة)[٢].

• لاَ إِلَـهَ إِلاَّ اللّه...

(أعظم كلمة نطقت بها الألسنة وشهدت بها القلوب واستوعبتها البصائر النيرة وأقرت بها العقول المبصرة واستعذبتها الآذان الواعية وخشعت لها الجوارح كلها

---

(١) مع الله صـ٣٩.. د. سلمان العودة.

(٢) الجواب الكافي ص٢٧٦.. الإمام ابن القيم.

وامتلأت بجلالها وجمالها الضمائر اليقظة والقلوب المطمئنة)[1].

• لاَ إِلَـهَ إِلاَّ اللّه...

الكلمة الطيبة التي تملأ النفوس بالصدق والإخلاص وتثبت القلوب على الإيمان والطاعة ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ [إبراهيم ٢٤].

فمثل كلمة التوحيد في كيان المسلم كمثل الشجرة الطيبة في الأرض الصالحة فتلك الشجرة أصلها ثابت وفرعها في السماء تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها (فالإسلام يتغلغل في كيان المسلم ويضرب جذوره القوية في قلبه وروحه ومشاعره.. فتثبت وتترسخ في أعماقه.. ويمتد هذا الإسلام في كيانه ويتغلغل في حواسه وأجهزته.. ومشاعره وأحاسيسه.. وتصوراته وأفكاره ويوجه له سمعه وبصره.. ولسانه وجوارحه.. وعقله وفكره.. وأحلامه وآماله.. وينظم له أعماله ومكاسبه.. وعمره وحياته.. ويغذي له همته وعزيمته.. وتكون النتائج الطيبة والأعمال الجليلة والحسنات الكثيرة ثمارا مباركة لشجرة الإسلام الراسخة في شخصية المسلم وكيانه)[2].

وهكذا (هذه الشجرة لا تزال تثمر الأعمال الصالحة كل وقت بحسب ثباتها في القلب ومحبة القلب لها وإخلاصه فيها ومعرفته بحقيقتها وقيامه بحقوقها ومراعاتها حق رعايتها.. فمن رسخت هذه الكلمة في قلبه بحقيقتها التي هي حقيقتها واتصف قلبه بها وانصبغ بها بصبغة الله التي لا أحسن صبغة منها فعرف حقيقة الإلهية التي يثبتها قلبه لله ويشهد بها لسانه وتصدقها جوارحه ونفى تلك الحقيقة ولوازمها عن كل ما سوى الله وواطأ قلبه لسانه في هذا النفي والإثبات وانقادت جوارحه لمن

---

(١) أسماء الله الحسنى آثارها وأسرارها ص١١ ... د. محمد بكر إسماعيل.
(٢) وعود القرآن بالتمكين للإسلام ص ١٠٦ .. د. صلاح الخالدي.

شهد له بالوحدانية طائعة سالكة سبل ربه ذللا غير ناكبة عنها ولا باغية سواها بدلا.. كما لا يبتغي القلب سوى معبوده الحق بدلا.. فلا ريب أن هذه الكلمة من هذا القلب على هذا اللسان لا تزال تؤتي ثمرتها من العمل الصالح الصاعد إلى الله كل وقت.. فهذه الكلمة الطيبة هي التي رفعت هذا العمل الصالح إلى الرب تعالى وهذه الكلمة الطيبة تثمر كلاما كثيرا طيبا يقارنه عمل صالح فيرفع العمل الصالح إلى الكلم الطيب كما قال تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ [فاطر ١٠])[1].

• لاَ إِلَـهَ إلاَّ اللّه...

كلمة الإخلاص ﴿فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ۝٢ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ﴾ [الزمر ٢-٣]... ولا يتم الإخلاص لله تعالى في العبادة إلا بتوحيده وإفراده بالإلوهية والربوبية فالتوحيد الخالص ليس مجرد إقرار العبد بأنه لا خالق إلا الله وأن الله رب كل شيء ومليكه كما كان عباد الأصنام مقرين بذلك وهم مشركون.. بل التوحيد يتضمن من محبة الله والخضوع له والذل وكمال الانقياد لطاعته وإخلاص العبادة له وإرادة وجهة الأعلى بجميع الأقوال والأعمال والمنع والعطاء والحب والبغض ما يحول بين صاحبه وبين الأسباب الداعية إلى المعاصي والإصرار عليها.

• لاَ إِلَـهَ إلاَّ اللّه...

العروة الوثقي﴿فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا﴾ [البقرة ٢٥٦].

(إن الإيمان بالله عروة وثيقة لا تنفصم أبدا.. إنها متينة لا تنقطع.. ولا يضل الممسك بها طريق النجاة.. إنها موصولة بمالك الهلاك والنجاة.. والإيمان في حقيقته اهتداء

---

(١) إعلام الموقعين ج٢ ص٣٠٠.. الإمام ابن القيم.

إلى الحقيقة الأولى التي تقوم بها سائر الحقائق في هذا الوجود حقيقة الله.. واهتداء إلى حقيقة الناموس الذي سنه الله لهذا الوجود وقام به هذا الوجود.. والذي يمسك بعروته يمضي على هدى إلى ربه فلا يرتطم ولا يتخلف ولا تتفرق به السبل ولا يذهب به الشرود والضلال)[1].

فيا لها من عروة وثقي يجب العض عليها بالنواجذ... فمن اعتصم بمحبة الله محققا مدلولهما من بغض كل ما يبغضه الله والإبتعاد عنه.. ومحبة كل ما يحبه الله وتنفيذه ﴿فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ﴾.

• لاَ إِلَـهَ إِلاَّ الله...

أساس العقيدة الصحيحة ودعوة جميع الأنبياء عليهم السلام من آدم وحتى خاتم النبيين والمرسلين ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء ٢٥].

فكلمة التوحيد (لاَ إِلَـهَ إِلاَّ الله) هي الكلمة التي تلتقي عندها جميع دعوات الأنبياء والمرسلين... وما من نبي إلا قال لقومه هذه الكلمة ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ [الأعراف ٦٥].

إن القرآن الكريم كتاب التوحيد فقد تضمنت آياته الكريمة من أول سورة الفاتحة إلى خاتمة سورة الناس الدعوة إلى توحيد الله تعالى وتوجيه العباد إلى الإخلاص في عبادته... وهذا ما قرره الإمام ابن القيم رحمه الله فقال: (إن كل آية في القرآن فهي متضمنة للتوحيد شاهدة به داعية إليه فإن القرآن إما خبر عن الله وأسمائه وصفاته وأفعاله فهو التوحيد العلمي الخبري... وإما دعوة إلى عبادته وحده لا شريك له وخلع كل ما يعبد من دونه فهو التوحيد الإرادي الطلبي.

---

(١) في ظلال القرآن ج١ ص ٢٩٢.. سيد قطب.

وإما أمر ونهي وإلزام بطاعته في نهيه وأمره فهي حقوق التوحيد ومكملاته.

وإما خبر عن كرامة الله لأهل توحيده وطاعته وما فعل بهم في الدنيا وما يكرمهم به في الآخرة فهو جزاء توحيده.

وإما خبر عن أهل الشرك وما فعل بهم في الدنيا من النكال وما يحل بهم في العقبى من العذاب فهو خبر عمن خرج عن حكم التوحيد.

فالقرآن كله في التوحيد وحقوقه وجزائه وفي شأن الشرك وأهله وجزائهم ف {الْحَمْدُ للهِّ} توحيد.. ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ} توحيد.. ﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ} توحيد ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ} توحيد.. ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ} توحيد.. ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ} توحيد ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ} توحيد متضمن لسؤال الهداية إلى طريق أهل التوحيد الذين أنعم الله عليهم.. ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلا الضَّالِّينَ} الذين فارقوا التوحيد)[1].

فيا لعِظَم هذه الكلمة، ويا لمكانتها في قلب المؤمن، فلا يستشعر بها إلا مَن ذَاق طعْمَها، ووَقَف عندها، فإن ساحِلَها عظيمٌ وإن خيرَها عميمٌ، فهنيئًا لِمَن أقرَّها وآمن بها.

أنواع التوحيد:

١ـ توحيد الربوبية:

وهو الإعتقاد الجازم بأن الله عزوجل وحده هو رب كل شيء ومليكه وهو الفاعل المطلق في الكون بالخلق والتدبير.. والتغيير والتسيير.. والزيادة والنقص.. والإحياء والإماتة وغير ذلك من الأفعال لا يشاركه أحد في فعله سبحانه (وقد أفصح القرآن عن هذا النوع من التوحيد جد الإفصاح ولا تكاد سورة من سوره تخلو من ذكره أوالاشارة إليه فهو كالأساس بالنسبة لأنواع التوحيد الأخرى.. لأن الخالق المالك

(١) مدارج السالكين ج٣ ص٤٨٩.. الإمام ابن القيم.

المدبر هو الجدير وحده بالتوجه إليه بالعبادة والخشوع والخضوع.. وهو المستحق وحده للحمد والشكر والذكر والدعاء والرجاء والخوف وغير ذلك.. والعبادة كلها لا يصح أن تكون إلا لمن له الخلق والأمر كله.

ومن جهة أخرى فإن الخالق المالك المدبر هو الجدير وحده بصفات الجلال والجمال والكمال لأن هذه الصفات لا تكون إلا لرب العالمين.. إذ يستحيل ثبوت الربوبية والملك لمن ليس بحي ولا سميع ولا بصير ولا قادر ولا متكلم ولا فعال لما يريد ولا حكيم في أقواله وأفعاله)[1].

ومن النصوص القرآنية التي اشتملت على توحيد الربوبية:

• قوله تعالى:

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ [الأعراف٥٤-٥٥].

في هذه الآيات مخاطبة الناس بأن ربهم الذي يهيمن عليهم بصفات ربوبيته فيرحمهم ويمدهم بعطاءات ربوبيته لهم ويستجيب دعاءهم هو الله.

• قوله تعالى:

﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾ [يونس٣١ - ٣٢].

في هذه الآيات بيان أن الذي يتصف بما ذكر من القدرة الخلاقة والإرادة المبدعة هو

(١) الإيمان.. أركانه. حقيقته. نواقضه ص ٨.. د. محمد نعيم ياسين.

اللهّ خالقكم ومربّيكم على فضله ومدبر أموركم وهو المستحق للعبادة وهو ربكم الثابت ربوبيته بذاته لأنه الذي أنشأكم وأحياكم ورزقكم ودبر أموركم فلا إله غيره ولا معبود سواه.

٢ـ توحيد الألوهية:

وهو الاعتقاد الجازم بأنه تعالى الإله الحق المستحق لجمع العبادات الظاهرة والباطنة المتفرد بها فلا معبود إلا هو.

(فتوحيد الألوهية مبنى على إخلاص العبادة لله وحده في باطنها وظاهرها.. بحيث لا يكون شيء منها لغيره سبحانه.. فالمؤمن بالله يعبد الله وحده ولا يعبد غيره فيخلص لله المحبة والخوف والرجاء والدعاء والتوكل والطاعة والتذلل والخضوع وجميع أنواع العبادة وأشكالها.

وهذا النوع يتضمن في حقيقته جميع أنواع التوحيد الأخرى.. فيتضمن توحيد الله في ربوبيته وأسمائه وصفاته وليس العكس.. فإن توحيد العبد لله في ربوبيته لا يعني أنه يوحده في ألوهيته فقد يقر بالربوبية ولا يعبد الله عز وجل وكذلك توحيد الله في أسمائه وصفاته لا يتضمن أنواع التوحيد الأخرى ولكن العبد الذي يوحد الله في ألوهيته على الخلق فيقر بأنه سبحانه هو وحده المستحق للعبادة وأن غيره لا يستحقها ولا يستحق شيئا منها يقر في الواقع بأن الله رب العالمين وبأن له الأسماء الحسنى والصفات الكاملة لأن إخلاص العبادة لا يكون لغير الرب ولا يكون لمن فيه نقص)[١].

٣ـ توحيد الأسماء والصفات:

(الإعتقاد الجازم بأن الله عزوجل متصف بجميع صفات الكمال ومنزه عن جميع

(١) الإيمان.. أركانه. حقيقته. نواقضه ص١٢.

صفات النقص وأنه متفرد بهذا عن جميع الكائنات وذلك بإثبات ما أثبته سبحانه لنفسه أوأثبته له رسوله ﷺ من الأسماء والصفات من غير تحريف ألفاظها أو معانيها.. ولا تعطيلها بنفيها أو نفي بعضها عن الله عزوجل ولا تكييفها بتحديد كنهها وإثبات كيفية معينة لها ولا تشبيهها بصفات المخلوقين)[1].

قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ فَٱدۡعُوهُ بِهَا وَذَرُواْ ٱلَّذِينَ يُلۡحِدُونَ فِيٓ أَسۡمَـٰٓئِهِۦۚ سَيُجۡزَوۡنَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ [الأعراف ١٨٠] ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾ أي: له الأسماء الكثيرة الكاملة الحسنى.

من حسنها أنها كلها أسماء دالة على المدح، فليس فيها اسم لا يدل على المدح والحمد.

ومن حسنها أنها ليست أعلامًا محضة، وإنما هي أسماء وأوصاف.

ومن حسنها أنها دالة على الصفات الكاملة، وأن له من كل صفة أكملها وأعمها وأجلها.. ومن حسنها أنه أمر العباد أن يدعوه بها، لأنها وسيلة مقربة إليه يحبها، ويحب من يحبها ويحب من يحفظها، ويحب من يبحث عن معانيها ويتعبد له بها.

وقال النبي ﷺ: «**إن لله تسعة وتسعين اسما مائة إلا واحد من أحصاها دخل الجنة**»[2].

ومعني أحصاها: التعرف على معاني هذه الأسماء وتدبرها واستحضار معانيها ودعاء الله عزوجل بها وتحقيق آثارها الإيمانية والسلوكية على نحو يبارك النفس ويزكيها.. ويرتقي بالقلب والعقل والروح والوجدان إلى مدارج الكمال ومعارجه..

---

(١) المصدر السابق ص١٥.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري [٢٧٣٦] ومسلم [٢٦٧٧].. لا يفيد هذا الحديث حصر أسماء الله تعالي بهذا العدد وإنما يدل علي عظم شأن وكبر ثواب من أحصي هذا العدد من أسماء الله عزوجل.. راجع ماكتبه ابن القيم في بدائع الفوائد ج١ ص ٢٩٣.

وليس مجرد ترديد ألفاظ لا نفقه ماورائها.

وقد دلت سور الفاتحة على هذه الأنواع الثلاثة للتوحيد... فقال تعالى:

- في بيان توحيد الربوبية... ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾.
- في بيان توحيد الألوهية... ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾.
- في بيان توحيد الأسماء والصفات... ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ٣ مَٰلِكِ يَوۡمِ﴾.

* فضل التوحيد وشهادة لا إله إلا الله[1]:

١- من فضائله أنه السبب الأعظم لتفريج كربات الدنيا والآخرة ودفع عقوباتهما

٢- ومن أجّل فوائده أنه يمنع الخلود في النار إذا كان في القلب منه أدنى مثقال حبة خردل... وأنه إذا كمل في القلب يمنع دخول النار بالكلية.

٣- ومنها أنه يحصل لصاحبه الهدى الكامل والأمن التام في الدنيا والآخرة.

٤- ومنها أنه السبب الوحيد لنيل رضا الله وثوابه وأن أسعد الناس بشفاعة محمد ﷺ من قال لا إله إلا الله خالصًا من قلبه.

٥- ومن أعظم فضائله أن جميع الأعمال والأقوال الظاهرة والباطنة متوقفة في قبولها وفي كمالها وفي ترتب الثواب عليها على التوحيد.. فكلما قوي التوحيد والإخلاص لله كملت هذه الأمور وتمت.

٦- ومن فضائله أنه يسهل على العبد فعل الخير وترك المنكرات ويسليه عن المصيبات.. فالمخلص لله في إيمانه وتوحيده تخف عليه الطاعات لما يرجو من ثواب ربه ورضوانه ويهون عليه ترك ما تهواه النفس من المعاصي لما يخشى من سخطه وعقابه.

٧- ومنها أن التوحيد إذا كمل في القلب حبب الله لصاحبه الإيمان وزينه في قلبه

(١) من كتاب القول السديد في مقاصد التوحيد للشيخ عبد الرحمن السعدي رحمه الله.

وكره إليه الكفر والفسوق والعصيان وجعله من الراشدين.

٨- ومنها أنه يخفف على العبد المكاره ويهون عليه الآلام.. فبحسب تكميل العبد للتوحيد والإيمان يتلقى المكاره والآلام بقلب منشرح، ونفس مطمئنة، وتسليم ورضى بأقدار الله المؤلمة.

٩- ومن أعظم فضائله أنه يحرر العبد من رق المخلوقين والتعلق بهم وخوفهم ورجائهم، والعمل لأجلهم، وهذا هو العز الحقيقي والشرف العالي ويكون مع ذلك متألها متعبدا لله لا يرجو سواه ولا يخشى إلا إياه ولا ينيب إلا إليه، وبذلك يتم فلاحه ويتحقق نجاحه.

١٠- ومن فضائله التي لا يلحقه فيها شيء أن التوحيد إذا تم وكمل في القلب وتحقق تحققا كاملا بالإخلاص التام فإنه يصير القليل من عمله كثيرا وتضاعف أعماله وأقواله بغير حصر ولا حساب ورجحت كلمة الإخلاص في ميزان العبد بحيث لا تقابلها السماوات والأرض، وعمارها من جميع خلق الله.

هذا قليل من كثير من فوائد التوحيد وفضائل لا إله إلا الله.. لا ينالها إلا من فهم معناها وعمل بمقتضاها.

* شروط لا إله إلا الله:

١ـ العلم المنافي للجهل..

﴿ فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ ﴾ [محمد ١٩].

(هذه أعظم قضية في العالم وأكبر مسألة في الدنيا وهي مسألة أن تعلم وتقر وتعترف أنه لا إله إلا الله فلا تعبد غيره ولا توحد سواه... إن الخلق خلقوا ليعلموا أن لا إله إلا الله... وأن الكتب نزلت لتثبت لا إله إلا الله... وإن الرسل بُعثت لتدعو إلى لا إله إلا الله... فقبل أن تعلم اعلم أنه لا إله الله... وقبل أن تدعو حقق لا إله إلا الله... وقبل أن تأمر وتنهى صحح لا إله إلا الله إن بداية الطريق لمن أراد الحياة الطيبة

والعيش السعيد والخاتمة الحسنة والخلود في الجنة لهي هذه الكلمة الرائدة الخالدة بكل ما تحتويه من معنى أراده الله عز وجل يوم فرض على العباد تحقيقها.. ولا بد لهذه الكلمة من اعتقاد جازم لا يخالطه شك.. وحب صادق لا يكدره سخط.. وصدق في قولها لا يمازجه كذب وعمل بمقتضاها لا يناقضه مخالفة.. ودعوة إليها لا يصاحبها فتور.. وسلامة من كل ما يضادها أو يعارضها من شرك أورياء أوبدعة ليكون قائلها أسعد الناس بها في الدنيا والآخرة)[1].

٢ـ اليقين المنافي للشك..

﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴾ [الحجرات ١٥].

(إن المؤمنين حقا هم الذين آمنوا بالله إيمانًا صحيحًا وصدقوا برسوله وانقادوا لأوامره وأذعنوا لحكمه إذعانا كاملا مقرونا بالرضا والتسليم التام الذي لا تؤثر فيه شبهة عند ذلك أو تطفو على سطحه أثارة من ارتياب ولا يظهر في سمائه سحابة من شك أو تردد أو انتكاس أو اهتزاز.. بل يجب أن يكون إيمانا خالصا من كل الشوائب والأكدار.. ثابتًا ثبات الشُم الراسيات لا تزيده الأعاصير إلا توهجا وصلابة وقوة.. لا ينال منه شيء ولا تلين له قناة)[2].

٢ـ القبول المنافي للرد..

فقد قال الله سبحانه وتعالى عن الكفار الذين ردوها استكبارًا ﴿إِنَّهُمْ كَانُوٓا۟ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓا۟ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ﴾ [الصافات٣٥ – ٣٦] وهذا ما أشار إليه النبي ﷺ فقال: «**إن مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل غيث (المطر) أصاب أرضًا فكانت طائفة (القطعة**

(١) على بوابة الوحي.. د. عائض القرني.
(٢) مواقف وتأملات مع سورة الحجرات ص ٤٨٦.. الشيخ أحمد علي السعدني.

من الشيء) طيبة قبلت الماء فأنبتت الكلأ (العشب رطبه ويابسه) والعشب الكثير وكان منها أجادب (الأرض الصلبة التي لا ينضب منه الماء) أمسكت الماء فنفع اللّه بها الناس فشربوا وسقوا وزرعوا وأصاب طائفة أخرى إنما هي قيعان (الأرض المستوية التي لا تنبت) لا تمسك ماء ولا تنبت كلأً... فذلك مثل من فقه في دين اللّه ونفعه ما بعثني اللّه به فعلم وعلّم ومثل من لم يرفع بذلك رأسًا (أعرض عنه فلم ينتفع به ولا نفع) ولم يقبل هدى اللّه الذي أرسلت به»[1] وفي هذ الحديث شبه النبي ﷺ الناس في تفاوتهم في الإستجابة لرسالته السماوية بالأرض في اختلاف تقبلها للماء وانتفاعها به فكما أن الأرض بحاجة إلى الماء ليمنحها حياتها كذلك القلوب في حاجة إلى الهدي الإلهي ليمنحها حياتها.

٤ـ الانقياد للتوحيد انقيادًا تامًا..

وهذا الانقياد والخضوع هو المحك الحقيقي للإيمان وهو المظهر العملي له ﴿وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ﴾ [لقمان٢٢] (إنه الاستسلام المطلق لله مع إحسان العمل والسلوك.. الاستسلام بكامل معناه والطمأنينة لقدر الله والانصياع لأوامر الله وتكاليفه وتوجيهاته مع الشعور بالثقة والاطمئنان للرحمة والاسترواح للرعاية والرضى الوجداني رضى السكون والارتياح.. كل أولئك يرمز له بإسلام الوجه إلى الله والوجه أكرم وأعلى ما في الإنسان)[2].

وما أجمل قول د. فريد الأنصاري وهو يرسم لك صورة من صور الانقياد: (إن العبد المسكون بحقيقة «لا إله إلا الله» لا يملك إلا أن يتدفق منجرفًا إلى الله تمامًا كما

---

(١) متفق عليه.. رواه البخاري [٧٩] ومسلم [٢٢٨٢].
(٢) في ظلال القرآن ج٥ ص٢٧٩٢.

تتدفق الأنهار سارية وساربة إلى مالكها.. فأنى له إذن أن يتخلف إذا سمع داعي الله ينادي أن (حي على الصلاة).. أو (حي على الفلاح)؟ ... يتخلف؟.. كيف؟.. وها المسلم إنما هو ذلك العبد الذي يحمل جمرة الشوق إلى الله.. يُسبغ الوضوء على المكاره وينقل الخطى إلى المساجد يسري في الظُّلَم ويسرب في الهجير متقلبا بين حَرٍّ وقَرٍّ.. ويجاهد في سبيل الله.. ينثر روحه أزهارا على الثرى طمعا في رضى المحبوب الذي تعلقت به القلوب)[1].

٥ـ الصدق المنافي للكذب والنفاق..

فإن الله عزوجل وصف المنافقين بأنهم ﴿يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾ [الفتح١١].. فالمنافقون قالوها بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم فخالفوا بذلك حقيقة الإيمان ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ [البقرة ٨].

٦ـ المحبة..

فقد أخبرنا الله عزوجل عن صنف من الناس أشرك معه غيره فإتخذوا أصنام وأوثانًا وأندادًا أحبوهم كحب الله ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ [البقرة ١٦٥] (فالمؤمنون لهم محبوب واحد هو أحب إليهم من أنفسهم وأموالهم وأولادهم وأزواجهم وآبائهم وعشيرتهم وأوطانهم.. يحبونه أعظم من تلك المحبوبات لأنهم يعتقدون أن كل شيء منه وهو وحده مالكه والمتصرف فيه... وهكذا فحب المؤمنين لله يدفعهم إلى جعل حياتهم كلها لله كما أن مماتهم له ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ لَا شَرِيكَ لَهُۥ﴾ [الأنعام ١٦٢-١٦٣])[2].

---

(١) جمالية الدين ص١١٢.
(٢) صفوة الآثار والمفاهيم من تفسير القرآن العظيم ج٢ ص ٥١٤.. الشيخ عبد الرحمن الدوسري.

٧ـ الإخلاص المنافي للشرك والرياء..

﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ﴾ [البينة ٥].

أخي في الله... (إن الشخص الذي ينطق بالشهادة قد أقر بالعبودية لله وحده، فقد أقر بأنه لا يوجد إله إلا الله، أي لا يوجد معبود بحق إلا الله.. فمن شأن الإله أن يُعبد، وما دام لا يوجد إلا إله واحد هو الله سبحانه وتعالى، فليس هناك إذن من تنبغي له العبادة إلا الله، ولا يجوز التوجه بالعبادة لسواه... ترى إذا نحن نطقنا بالشهادة بألسنتنا وحدها ولم نقرَّ بها في قلوبنا نكون قد عبدنا الله؟! وإذا نحن نطقنا بها بألسنتنا ثم أعلنّا -بأقوالنا وأفعالنا- أن أوامر الله ليست ملزمة لنا، وأن من حقنا أن نخالفها كلها، أو أن نتخير منها أشياء ننفذها وأشياء أخرى لا نلتزم بتنفيذها.. هل نكون قد عبدنا الله؟ هل تكون قلوبنا قد أقرت بالفعل بالعبودية لله وحده؟ كلا! فالإقرار معناه الالتزام! وإلا فهي كلمة تُقال باللسان، ولا رصيد لها من الواقع!)[1].

* أشعة لا إله إلا الله:

يقول الإمام ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ:

(اعلم أن أشعة [لا إله إلا الله] تبدد من ضباب الذنوب وغيومها بقدر قوة ذلك الشعاع وضعفه.. فلها نور وتفاوت أهلها في ذلك النور قوة وضعفًا لا يحصيه إلا الله تعالى... فمن الناس: من نور هذه الكلمة في قلبه كالشمس.. ومنهم: من نورها في قلبه كالكوكب الدري.

ومنهم: من نورها في قلبه كالمشعل العظيم... وآخر: كالسراج المضيء وآخر

---

(١) ركائز الإيمان ص٩٤ الأستاذ محمد قطب.

كالسراج الضعيف.

ولهذا تظهر الأنوار يوم القيامة بأيمانهم وبين أيديهم على هذا المقدار بحسب ما في قلوبهم من نور هذه الكلمة علمًا وعملاً ومعرفة وحالاً.

وكلما عظم نور هذه الكلمة واشتد أحرق من الشبهات والشهوات بحسب قوته وشدته حتى إنه ربما وصل إلى حال لا يصادف معها شبهة ولا شهوة ولا ذنبا إلا أحرقه وهذا حال الصادق في توحيده الذي لم يشرك بالله شيئًا.. فأي ذنب أو شهوة أو شبهة دنت من هذا النور أحرقها.. فسماء إيمانه قد حرست بالنجوم من كل سارق لحسناته.. فلا ينال منها السارق إلا على غرة وغفلة لابد منها للبشر فإذا استيقظ وعلم ما سرق منه استنقذه من سارقه أوحصل أضعافه بكسبه.. فهو هكذا أبدًا مع لصوص الجن والإنس ليس كمن فتح لهم خزانته وولى الباب ظهره)[1].

* آثار التوحيد في النفس البشرية[2]:

١ـ إشراق النفس البشرية وسموها:

إن الإنسان يستمد من حقيقة التوحيد إشراقته ونوره وسداد أمره.. فالنفس المتعلقة بالله المتطلعة إلى رضاه لا تستغرقها شهوات الحس ولا تنصرف بكليتها إلى متاع الأرض القريب إنما تتطلع دائمًا إلى المثل العليا والقيم الرفيعة، وإلى الترفع عن الدنس في كل صوره وأشكاله، سواء كان فاحشة من الفواحش التي حرّمها الله، أو ظلمًا يقع على الناس أوموقفًا خسيسًا يقفه الإنسان من أجل شهوة رخيصة أو مطلب من مطالب الحياة الدنيا ولكن حين تهتز حقيقة التوحيد في النفس ويغشِّيها الشرك،

(١) مدارج السالكين ج١ ص٣٦٩.

(٢) استفدت في عرض آثار التوحيد من كتاب ركائز الإيمان للأستاذ محمد قطب – ومن محاضرة التوحيد وأثره في النفوس للشيخ إبراهيم الدويش.. ولعلك تلاحظ أخي القاريء أن ماذكرته غيض من فيض وإلا فآثار التوحيد عظيمة ومتنوعة لا تحصرها هذه الصفحات.

فإن النفس تنحطّ فتشغلها الأرض.. يشغلها المتاع الزائل فتتكالب عليه وتنسى القيم العليا والجهاد من أجل إقامتها وتحقيقها ويكون جهادها صراعًا خسيسًا على هذا المتاع الزائل يتقاتل من أجله الأفراد والدول والشعوب.. وتصبح الحياة البشرية محكومة بقانون الغاب، القوي ياكل الضعيف، والغلبة للقوة لا لصاحب الحق).

٢ـ عزة النفس البشرية:

إن العزة الحقيقة هي التي تُسْتَمدّ من الإيمان بالله الواحد ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون ٨] فالمؤمن الذي تعلق قلبه بالله على يقين أنه عزيز بتلك القوة المستمدة من العبودية الحقة لله الحق، فهو الإله الخالق الرازق الضار النافع المحيي المميت، المالك للأمر كله بلا شريك. ومن ثم لا يعود يخشى الأشياء ولا الأشخاص ولا الأحداث: لأنه يعلم أن الله هو المدبر الحقيقي لكل ما في الكون، وأن أحدًا في الكون كله لا يملك شيئًا مع الله. فعلام إذًا يذل لغير الله؟ علام يبذل من كرامته وعزته لبشر مثله، عاجز ولو كانت في يده مظاهر القوة، ضعيف وإن كان جبارًا في الأرض، محتاج مثله لما عند الله لأن الله هو الحي القيوم وكل ما عداه صائر إلى زوال؟!

٣ـ وحدة النفس البشرية:

يعلم الله سبحانه وتعالى أنه حين يعمل الإنسان بمقتضى كلمة التوحيد هذه فإن نفسه تكون «في أحسن تقويم» وتكون على استوائها، لأنها تتجه كلها وجهة واحدة في جميع تصرفاتها.. فالإنسان –المؤمن– يتجه بصلاته ونُسُكه إلى الله ويضرب في الأرض يبتغي الرزق فيتوجه إلى الله يطلب منه التوفيق والعون، ويتوجه إليه بالعمل ذاته فيبتغي فيه الحلال الذي أحله الله ويتجنب الحرام الذي حرمه الله، فيكون في كل لحظة ذاكرًا لله لأنه يتحرى حلاله وحرامه في كل تصرف وفي كل موقف.. كلما همَّ بحركة أو عمل أو هجس في نفسه هاجس سأل نفسه أولاً: أحلال هو فيأتيه، أم

حرام فعليه أن يتجنبه؟ وكذلك هو إن ذهب يتعلم، أو ابتغى أن يتزوج، أو باع أو اشترى، أو تعامل مع الناس في أمر من أمور حياته: يتوجه إلى الله أولاً ويستلهم كتابه المنزل الذي يحوي تفاصيل ما أحل الله وما حرم، وما أباح وما منع.. فإذًا هو في كل نشاط حياته متجه إلى الله سبحانه وتعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢) لَا شَرِيكَ لَهُ﴾ [الأنعام ١٦٢].

٤ـ إنكسار النفس وإفتقارها لمولاها:

إن شعور النفس الإنسانية أنها بحاجة في كل لحظة إلى خالقها ومالكها ومدبر أمرها يزيد العبد افتقارًا والتجاء إليه عز وجل، ويزيده ترفعًا عن المخلوقين ومما في أيديهم، فالمخلوق ضعيف فقير عاجز أمام قدرة الحق عز وجل الذي إذا أراد شيئًا قال له كن فيكون.. هنا يشعر الموحد بأنه يأوي إلى ركنٍ شديد، وأنه في سعادةٍ عظيمة، كيف لا وهو يشعر بذله وانكساره وافتقاره وعبوديته لملك الملوك.

٥ـ اليقين والثقة بالله عزوجل:

فصاحب التوحيد على يقينٍ من ربه، مصدق بآياته، مؤمن بوعده ووعيده كأنه يراها رأي العين، فهو واثق بالله متوكل عليه راضٍ بقضائه وقدره، محتسب الأجر والثواب منه.. فصاحب النفس الموحدة تمتلئ نفسه بالطمأنينة والسكينة حتى في أشد المواقف، وأصعب الظروف لأنه يعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه، لسان حاله يقول: ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [التوبة٥١].

٦ـ تسهيل فعل الخيرات وترك المنكرات:

فالمخلص في توحيده تخف عليه الطاعات لما يرجوه من الثواب، ويهون عليه ترك المنكرات وما تهواه نفسه من المعاصي لما يخشى من سخط الله وأليم عقابه.. وكلما حقق العبد الإخلاص في قول لا إله إلا الله خرج من قلبه تألّه ما يهواه وتصرف

عنه المعاصي والذنوب.. نعم إن صدق العبد في توحيده صرف عنه الكثير من الذنوب والمعاصي، ألم يقل الحق عز وجل في القرآن: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [يوسف ٢٤].. فعلل صرف السوء والفحشاء عن يوسف عليه السلام بأنه من عبادنا المخلصين... وفي المقابل تملأ الشهوات القلب إذا خلا من إرادة وجه الله ومحبته والإخلاص له.

إخواني في الله...

هذه هي حقيقة لاَ إِلَـهَ إِلاَّ الله فما أخفها على اللسان.. وما أطيب بردها على القلب.. وما أقوم سبيلها إلى العقل.. فهل يلتوى بها فم؟ وهل يضيق بها صدر؟ وهل يزورّ بها عقل؟

فواعجباه... كيف يشرك الناس بالله؟.. وهو الذي وهبهم العقل الذي هو أكبر حجة على من أشرك بالله.. لأن العقل فُطر على وحدانية الله وهو الذي يحكم دون ريب أو شك بوجود إله واحد ولا يمكن لهذا الكون أن يكون فيه إلهان أو أكثر ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الأنبياء ٢٢].

فيالسخافة عقول المشركين... كيف أهدروا معالم إنسانيتهم وما فضلهم الله به عن البهائم من نعمة العقل؟... فيا سبحان الله! كيف أوجبوا لها الشِّركة في العبادة وهي لا تملك نفعًا ولا ضرًا ولا تجلب خيرًا ولا تدفع شرًا؟! ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ [فاطر ١٣- ١٤].

كيف انغمسوا في ظلمات الجهالة العقلية وضلالات الوثنية... فسولت لهم أنفسهم مزاولة الشرك وعبادة الأصنام ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩١﴾ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ﴾ [الأعراف ١٩١-١٩٢] ألم يسمعوا قول

ربهم ﴿قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْاْ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا﴾ [الإسراء ٤٢-٤٣] ألم يقروا ويعترفوا بحول الله وقوته وعظيم قدرته ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ [الزخرف ٨٧]... ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ [العنكبوت ٦١].

إن الحقيقة التي لا مرية فيها أنهم (ما كفروا به إلا ظلمًا وعلوًا وتقليدًا للآباء والأجداد واتباعًا لأهوائهم وشياطينهم ومع ذلك يلجئون إليه عند استفحال الخطر واشتداد الكرب ولا يلجئون الى تلك الأصنام والأوثان التي يعبدونها من دونه بل يضرعون اليه وحده ويسألونه النجاة لأنفسهم وأموالهم لعلمهم بالفطرة أنه هو القادر على ذلك وحده... اقرأ قول الله تبارك وتعالى عن هؤلاء الكفرة: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُواْ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [يونس ٢٢].

فالله جل جلاله إله لا يجحده جاحد وإن تظاهر بأنه يجحده فإنه لا يقوى على ذلك أبدًا لأن الله في كيانه كله.. في عقله وقلبه وروحه وحسه.. فما من إنسان إلا ويعلم أن له إلها قد خلقه وأنه مفتقر اليه بالضرورة وإنه لا يستطيع أن يعيش بمعزل عن الخضوع إليه.. فهو شعور نابع من ضميره لا يستطيع أن يكبته في أعماق نفسه ولكن قد يخطئ الطريق إليه فيعبد غيره محكومًا بعوائق تعوقه عن الرجوع لفطرته التي فطره الله عليها)[1].

فهذه (قريش التي كانت تعبد هُبل واللات والعزى.. إنما كانت تعبدها ساعة الأمن تعبدها هزلا منها.. فإذا جدَّ الجدُّ وركب القرشيون السفينة وهاج البحر من حولها بموج كالجبال وصارت سفينتهم بيد الموج كريشة في كفّ الرياح وظهر

(١) أسماء الله الحسني آثارها وأسرارها ص ٧-٨.

الخطر وعمّ الخوف.. بدأ الإيمان الكامن في أعماق النفس فلم تُدْعَ اللات والعزى ولا هاتيك [المَسْخرات] ولكن دعت الله رب الأرض والسماوات.. وعندما تغرق السفينة وتبقى أنت على لوح من الخشب بين الماء والسماء لا تجد ما تصنع إلا أن تنادي: يا الله... هذا فرعون الذي طغى وبغى.. وتكبّر وتجبر حتى قال أحمق مقالة قالها إنسان قال: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾ [النازعات٢٤] لما أدرك الغرقُ فرعون قال: ﴿ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتۡ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾ [يونس٩٠][1].

(١) الباب الذي لا يغلق في وجه السائل... الشيخ علي الطنطاوي.

الحي القيوم

(هذان الإسمان الكريمان يدلان على سائر الأسماء الحسنى دلالة مطابقة وتضمنا ولزوما... فالحي من له الحياة الكاملة المستلزمة لجميع صفات الذات كالسمع والبصر والعلم والقدرة ونحو ذلك... والقيوم هو الذي قام بنفسه وقام بغيره وذلك مستلزم لجميع الأفعال التي اتصف بها رب العالمين من فعله ما يشاء من الاستواء والنزول والكلام والقول والخلق والرزق والإماتة والإحياء وسائر أنواع التدبير كل ذلك داخل في قيومية الباري).

[الشيخ عبد الرحمن السعدي رحمه الله].

الحي

- **الحى...**

(ذو الحياة الكاملة.. والحياة الكاملة مظهرها الشعور والإدراك والعلم وهى كمال الوجود فى المحسوسات والمخلوقات ولكنها بالنسبة لله سبحانه وتعالى صفة كمال له جلت قدرته مظهرها العلم والإرادة والقدرة والخلق والتكوين والحياة على هذا صفة كمال قد وصف الله سبحانه وتعالى بها ذاته الكريمة والعقل يوجب اتصافه سبحانه بها لأنها من كمال الوجود والله سبحانه وتعالى هو وحده كامل الوجود وفوق كل موجود)[1].

- **الحي...**

(والحياة التي يوصف بها الإله الواحد هي الحياة الذاتية التي لم تأت من مصدر آخر كحياة الخلائق المكسوبة الموهوبة لها من الخالق ومن ثم يتفرد الله سبحانه بالحياة

---

(١) زهرة التفاسير ج٢ ص ٩٣٢- ٩٣٣.. الإمام محمد أبو زهرة.

على هذا المعنى.. كما أنها هي الحياة الأزلية الأبدية التي لا تبدأ من مبدأ ولا تنتهي إلى نهاية.. فهي متجردة عن معنى الزمان المصاحب لحياة الخلائق المكتسبة المحددة البدء والنهاية ومن ثم يتفرد الله سبحانه كذلك بالحياة على هذا المعنى.. ثم إنها هي الحياة المطلقة من الخصائص التي اعتاد الناس أن يعرفوا بها الحياة.. فالله سبحانه ليس كمثله شيء ومن ثم يرتفع كل شبه من الخصائص التي تتميز بها حياة الأشياء وتثبت لله صفة الحياة مطلقة من كل خصيصة تحدد معنى الحياة في مفهوم البشر)[1].

فحياته سبحانه وتعالى منزهة عن مشابهة حياة الخلق فلا يجري عليها الموت أو الفناء، ولا تعتريها السنة ولا النوم.

- **الحي...**

الذي يمنح أهل الجنة حياتهم الأبدية الأزلية السرمدية التي لا زوال لها بل هي خلود أبدي بلا موت ولا فناء.

أخي في الله...

(أطلق لخيالك العنان وتصور كل ما تنتجه الأيدي الحية من أعمال وما تنشئه العقول الحية من أفكار وما تهتز به الأفئدة الحية من مشاعر.. واجعل هذا الخيال يضم أشتات ذلك من مشارق الأرض ومغاربها ويستجمع ما حدث في الأعصار الخالية وما يحدث اليوم وما سوف يحدث غدًا إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها..

إن مظاهر هذه الحياة المفعمة بالقوة والإنتاج لا تعد شيئًا مذكورًا بالنسبة إلى الحياة الإلهية الواسعة.. بل هي أثر ضئيل من أعمال الحي الذي لا يموت الحي الذي ينفخ من روحه في الموات فيهتز وفي الجماد فيتحرك)[2].

---

(١) في ظلال القرآن ج ١ ص ٢٨٧.
(٢) عقيدة المسلم صفحة ٨٨.

و(تأمل الصخرة الصماء وقارن بينها وبين كائن حي يتحرك ويتنفس ويحس ويشعر.. فهذا الإنسان يعقل ويتكلم وله إرادة وله حس وفهم وتفكير وقدرة فهو يتميز عن بقية ما خلق الله عزوجل.. تأمل الفرق الشاسع والبون الهائل بين المادة الصماء وبين المخلوقات الحية المتحركة)[1].

• الآثار الإيمانية والسلوكية لاسم الله [الحي][2]:

أولاً: محبة الله عز وجل وإجلاله وتوحيده:

إن علم العبد بربه سبحانه وبأن له الحياة الكاملة المطلقة والتي تتضمن جميع صفات الكمال توجب على العبد محبة ربه سبحانه وإجلاله وتوحيده وهذا يثمر في القلب الابتهاج واللذة والسرور مما تندفع به الكروب والهموم والغموم... لذا فلا أحد يستحق أن يؤلَّـه ويعبد ويحب إلا الله الحي الباقي الكامل في ذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله.. وإذا كان ما سواه هالكًا فعبادة الهالك الباطل باطلة ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [القصص ٨٨].

لذلك فالإنسان العاقل يربط مصيره مع الله.. ولا يعتنق إلا مبدأ الله ولا ينضم إلا إلى أهل الله.. ولا يتحرك إلا وفق الحق لأن الحق هو الله وإذا استقام على أمر الله فالله هو الحافظ.. وإذا كان في ظل الله فالله هو الذي يؤيده وينصره.. فكل إنسان ربط مصيره مع الله فهو السعيد حقًا.

فليتك تحلو والحياة مريرة ... وليتك ترضى والأنام غضاب

وليت الذي بيني وبينك عامر ... وبيني وبين العالمين خراب

---

(١) مع الله ص ٢١٦.

(٢) آثرت الحديث عن الآثار الإيمانية والسلوكية لكل جملة في آية الكرسي على الرغم من إلتقائها جميعًا في محور واحد وهو تحقيق العبودية وتقوية الصلة بالله ومحبته.. وذلك من أجل تثبيت هذه المعاني ودوام استحضارها في القلب حتي نجني ثمار العبودية الحقة لله عزوجل.

إذا صح منك الوصل فالكل هين   وكل الذي فوق التراب تراب

ثانيًا: التوكل الصادق على الله عز وجل:

يقول الله عز وجل: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا﴾ [الفرقان ٥٨].

وكأن الحق تبارك وتعالى يريد أن ينصِّح خَلْقه إنْ أردتَ أنْ تتوكل فتوكل على مَنْ ينفعك ولا يتركك.. على مَنْ يظل على العهد معك لا يتخلى عنك.. على مَنْ لا يُعجزه شيء في الأرض ولا في السماء..

فالعاقل من (يكون توكله في جميع أموره عليه وحده سبحانه ويكون ربه هو ذخره وملجأه في كل حين.. ويقطع تعلقه ورجاءه في المخاليق الضعاف الذين يموتون وينامون ويغفلون وينسون ولا يملكون لأنفسهم ضرًا ولا نفعًا فضلاً عن أن يملكوه لغيرهم.

ومن أعظم ما يتوكل على الله عز وجل فيه طلب الهداية والثبات على الإيمان وعدم الزيغ عنه... ولذلك كان النبي ﷺ يتوسل بحاله وفقره واستسلامه لربه عز وجل ويتوسل بعزته سبحانه وباسمه [الحي] الذي لا يموت في حفظ إيمانه والاستعاذة بهذا الاسم العظيم من الضلال والغواية..

وذلك كما ورد في دعائه أنه كان يقول: «**اللَّهم لكَ أسلمتُ وبك آمنتُ وعليك توكلتُ، وإليك أنبت، وبك خَاصمت، اللَّهم إني أعوذُ بعزتك لا إله إلا أنت أن تُضِلَّني.. أنتَ الحيُّ الذي لا يموتُ، والجن والإنس يموتون**»[1].

ثالثًا: الزهد في هذه الحياة الدنيا الفانية وعدم الإغترار بها:

إن شعور المؤمن بأن الله عز وجل هو الحي الذي لا يموت وأن

(١) صحيح مسلم [٢٧١٧] من كتاب ولله الأسماء الحسني فادعوه بها ص١٥٨.. الشيخ عبدالعزيز الجليل.

كل المخلـوقات إلـى زوال وفنـاء ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ۝٢٦ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن ٢٦-٢٧] وأنه مهما أعطي العبد من العمر فلا بد من الموت.. أما الحياة الدائمة التي يهبها [الحي القيوم] لعباده المؤمنين فهي في الدار الآخرة في جنات النعيم إن هذا الشعور يدفع المسلم إلى الاستعداد للآخرة والسعي لنيل مرضات الله عز وجـل في الحياة السرمدية في جنات النعيم والله جل شأنه هوالذي يهب أهـل الجنة الحياة الدائمة الباقية التي لا تفنى ولا تبيد ﴿وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت ٦٤].

أي: الحياة الحقيقية التي لا تفوتها ولا تفوتك.. ولا يفارقك نعيمها ولا يُنغِّصه عليك شيء.. كما أن التنعُّم في الدنيا على قَدْر إمكاناتك وأسبابك أمّا في الآخرة فالنعيم على قَدْر إمكانات المنعم سبحانه وتعالى.

ولا سبيـل إلى هذه الحيـاة الحقيقية.. الحياة الهادئة الهانئة إلا الإيمان والعمل الصالح ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [النحل ٩٧].

ولا تحسبن الحياة الطيبة مجرد التمتع بالشهوات ولا الإكثار من عرض الدنيا وتشييد المنازل المزخرفات.. إنما الحياة الطيبة راحة القلوب وطمأنينتها والقناعة التامة برزق الله وسرورها بذكر الله وبهجتها وانصباغها بمكارم الأخلاق وانشراح الصدور وسعتها..

فلا حياة طيبة لغير الطائعين.. ولا لذة حقيقة لغير الذاكرين.. ولا راحة ولا طمأنينة قلب لغير المكتفين برزق الله القانعين.. ولا نعيمـاً صحيحًا لغير أهل الخلق الجميل والمحسنين.

(وانظر إلى قوله: ﴿فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ﴾.. ما أحسن اختيارها فالذي لا يحييه الله كأنه ميت ولو عاش وهالك ولو عمّر.. وفي كلمة نحيينه من الجاذبية والأسرار والتشويق لهذه الحياة ما يأخذ اللب ويأسر القلب.. وانظر كيف نكّر الحياة لتكون عامة كاملة وهذا

تنكير تعظيم وتحت كلمة حياة من الأسرار والمعاني ما يفوق الوصف.. فإن هذه الحياة تشمل حياة القلب بالإيمان والهدي فلا يموت أبدًا يوم تموت القلوب.. وحياة العقل بحسن الإدراك وصواب البصيرة وسداد الرأي.. وحياة الجسم بالعافية وحسن المعيشة والسلامة من الآفات والنجاة من الكدر والأمن من المتالف)[1].

---

(١) على بوابة الوحي.

القيـــوم

• **القيوم...**

القائم بذاته الذى لا يقوم بغيره والمستغني عن جميع مخلوقاته والقائم على كل شيء بالتدبير والحياطة والكلاءة... فهو الذي قام بجميع الموجودات فأوجدها وأبقاها وأمدَّها بجميع ما تحتاج إليه في وجودها وبقائها فهي مفتقرة إليه في الإيجاد والإعداد والإمداد والبقاء وهو غني عنها ولا قوام لها بدون أمره ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ [فاطر ١٥].

• **القيوم...**

القائم على كل نفس بما كسبت يعلم أحوالها ويسمع أقوالها ويبصر أفعالها حتى يجازيها بعملها من حيث هو عالم به لا يخفي عليه شيء منه ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ﴾ [الرعد ٣٣].

• **القيوم...**

القائم على هذا الكون العظيم بكلياته وجزئياته في كل وقت في السموات والأرض ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ﴾ [الرُّوم٢٥].

[قد يشرف المهندسون والبناءون على تشييد عمارة ضخمة، ثم ينفضون أيديهم منها أو يموتون عنها وتبقى العمارة بعدهم أمدًا بعيدًا قائمة الجدران مستوية الأركان.. إن هذه العمارة لم تخلق من عدم والفعلة فيها لم يزيدوا أن ضموا حجرًا حجرًا ثم انتهى عملهم إلى هذا الحد... أما بناء هذا الكون الفسيح وتشييد سقفه المحفوظ وتمهيد أرضه وتهيئتها للعمران فهو عمل آخر أساسه الإبداع من العمل المطلق.. وكما أن العالم في وجوده احتاج إلى ربه فهو في بقائه يحتاج إليه لحظة بعد لحظة.. ولا توجد ذرة في الأرض ولا في السماء تستمد وجودها من ذاتها حتى يتصور

استغناؤها بنفسها، بل على العكس هذا الوجود المفاض عليه يتلاشى ويضمحل إذا شاء مفيضه أن يحرمها منه مثلما يتقلص الظل إذا ذهب ما يلقيه.. لن يكون نهار إلا مع وجود الشمس، ولن يكون عالم إلا مع وجود الله ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النحل ٦٠] فالعقول وما يتردد فيها من أفكار، والقلوب وما يتجدد فيها من مشاعر والأجسام وما يتدفق فيها من دماء وما يتحرك فيها من أجهزة وعضلات.. في كل بلد، بل في كل قارة، منذ بدء الخلق والى قيام الساعة وما نعرف وما لا نعرف إنما يقوم بقيام الله عليه ولو شاء تركه لأصبحنا وما وجدنا وقتا نفكر فيه بأننا فنينا لأننا سنكون فنينا فعلاً..

إن الأرض التي تسير عليها بقدميك لا تمسك نفسها تحتك فهي لا تشعر بك ثم هي لا تصنع شيئًا من الحبوب والفواكه التي تغلها... فأنى لها الخلق والإتقان وهي جامدة هامدة لا تحس ولا تعلم؟ إن الإمداد الإلهي وحده هو الذي قام ويقوم بها ترى قياما لا تتوهم معه غفلة ولا تفريط ولا فتور وإلا لهلكنا واختل كل شيء)[١].

أخي في الله...

قل لي بربك..

• من غير الله عزوجل يدبر أمر الخلق ويرعاهم وهم أجنة ثم إذا نزلوا رعاهم ودبر لهم رزقهم في صدور أمهاتهم ثم يرعاهم طوال حياتهم؟

• من غير الله عزوجل يرزق الطير في وكناتها.. والوحوش في أوكارها.. والحيتان في بحارها.. والنملة في جحرها؟

• من غير الله عزوجل قائم على السماوات وما فيهن من كواكب ونجوم.. يحفظها من أن يخرج منه جرم عن موضعه الذي أقامه فيه.. أو ينقص من سرعته

---

(١) عقيدة المسلم ص ٢٤ – ٢٥.

التي أجراها بها وأداره عليه؟

• من غير الله عزوجل يرقب الأرض في دورتها حول نفسها أمام الشمس حتي لا تنحرف عن مسارها الذي رسمه.. وحتي تحتفظ بالسرعة التي خصها بها.. يرقبها في إنبات نباتها وجريان أنهارها؟

أخي القاريء....

(تخيل معي لو أن شخصًا ما يقوم برعايتك باستمرار ويدير كل شئونك يأتيك بالطعام والشراب وسائر ما تحتاج.. تريد الماء فتجده يسارع بإحضاره وسقايته لك.. تريد الطعام فيشتريه ويطهيه ويناولك إياه بل يطعمك بنفسه.. يحمل عنك أغراضك ويقضي لك حوائجك.. تنام فيظل ساهرًا بجوارك يحرسك ويحميك ويطمئن عليك... تخيل لو أن شخصًا يفعل معك ذلك كل يوم وبدون مقابل.. ماذا ستكون مشاعرك نحوه؟!

أليست مشاعر الامتنان والحب هي التي ستغمرك تجاهه؟!

فإن كان من الطبيعي أن تتملكك هذه المشاعر تجاه من يتولى رعايتك في بعض جوانب حياتك.. فماذا ينبغي أن تكون مشاعرك تجاه من يتولى القيام على جميع شئونك منذ أن ولدت وحتى يومنا هذا.. وحتى لحظتك هذه؟!

لقد خلقنا الله عز وجل من العدم وجعل لنا السمع والأبصار والأفئدة والأطراف والأجهزة المختلفة كأسباب تتيسر لنا من خلالها الحياة بلا منغصات.

هذه الأسباب لا تملك في نفسها القدرة الذاتية على القيام بوظائفها المختلفة فالعضلات مثلا خلقها الله عز وجل ولديها القابلية للانقباض والانبساط لكن الذي يمدها بالفاعلية والقدرة على ذلك هو الله سبحانه وتعالى.. في كل لحظة وطرفة عين يمدها سبحانه بما يكفل لها القيام بوظيفتها ولو تخلى عنها طرفة عين لما

انقبضت ولا انبسطت.. فإذا أردت الضحك لا تطاوعك عضلات فمك فيما تريد لأنها بدون المدد الإلهي تبقي عاجزة ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضۡحَكَ وَأَبۡكَىٰ﴾ [النجم ٤٣].

هذه هي الحقيقة فهو سبحانه الذي أضحك وأبكى وهو الذي أقام وأقعد وهو الذي حرَّك وسكَّن.

نعم -أخي القارئ- لا قيمة لأحد منا بدون الله وكيف لا وكل خلية تعمل في جسمك فإن ربك هو القائم عليها وعلى تدبير شئونها...

القلب يتعاهده ويحفظه ويتولى ضبط سرعة ضخه للدم.

اللقمة التي تأكلها في فمك يتولى سبحانه وتعالى عملية تسييرها وهضمها وامتصاص النافع منها وإخراج ما ينبغي إخراجه.

النَفَس الذي تتنفسه يتولى سبحانه عملية دخوله إلى الرئتين وأخذ مادة الأكسجين منه وإخراجه محملا بثاني أكسيد الكربون.

الكُلية يعمل بها حوالي مليون جهاز ترشيح يقوم عليهم جميعًا ويتولى أمر حفظهم وإمدادهم بالقدرة على تنقية الدم والسوائل مرات ومرات في اليوم الواحد.

يقوم سبحانه على الجهاز العصبي والإحساس وعلى الجهاز المناعي وعلى الغدد وما تفرزه من هرمونات تحتاج دومًا إلى ضبط نسبها الدقيقة في الدم.

قائم على الدم وضبط درجة سيولته في كل لحظة.. فلو زادت لحدث النزيف ولو نقصت لكانت الجلطات والعياذ بالله.

يتولى سبحانه أمر إبصارك بالعين وسماعك بالأذن ونطقك باللسان.

يمدك بالماء ويمكنك من شربه ويمده بالقدرة على إروائك ﴿وَأَرۡسَلۡنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسۡقَيۡنَٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمۡ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ﴾ [الحجر ٢٢].

يتولى أمر إثمار الطعام بأنواعه لتجده أمامك في أي وقت تشاء ﴿فَلۡيَنظُرِ ٱلۡإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ٢٤ أَنَّا صَبَبۡنَا ٱلۡمَآءَ صَبّٗا ٢٥ ثُمَّ شَقَقۡنَا ٱلۡأَرۡضَ شَقّٗا ٢٦ فَأَنۢبَتۡنَا

فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ﴾ [عبس ٢٤- ٣٢][1].

يالروعة الرعاية الربانية والكلاءة الإلهية... ما أعظم العناية الرحمانية.. لمن تلهج الألسنة إذا لم تلهج بذكره.. لمن تخفق القلوب إذا لم تخفق بشكره لمن تعنو الوجوه إذا لم تَعنُ لوجهه.. لمن تسجد الرؤوس إذا لم تسجد له.

---

(١) كيف نحب الله ونشتاق إليه ص ٤٨ -٤٩.. د. مجدي الهلالي.

* الأثار الإيمانية والسلوكية لإسم الله [القيوم]:

١ـ الإستغناء بالله عن كل ما سواه:

والتبرؤ من الحول والقوة والافتقار التام وإنزال جميع الحوائج بالله عز وجل وقطع التعلق بالمخلوق الضعيف المربوب لله تعالى المفتقر إلى ربه عز وجل الفقر الذاتي التام فالاستغناء بالله هو عين الفقر إليه وهما عبارتان عن معنى واحد... لأن كمال الغنى به هو كمال عبوديته.. وحقيقة العبودية كمال الافتقار إليه من كل وجه وهذا الافتقار هو عين الغنى به فالإفتقار إلى الله يعني أن يجرد العبد قلبه من كل حظوظها وأهوائها ويقبل بكليته إلى ربه عز وجل متذللاً بين يديه مستسلمًا لأمره ونهيه متعلقًا قلبه بمحبته وطاعته.

أخي الحبيب...

إذا إستغنى الناس بالدنيا فاستغن أنت بالله..

وإذا فرحوا بالدنيا فافرح أنت بالله..

وإذا أنسوا بأحبابهم فإجعل أنسك بالله..

وإذا تعرفوا إلى ملوكهم وكبارهم وتقربوا إليهم لينالوا بهم العزة والرفعة فتعرف أنت إلى الله وتودد إليه تـنل بذلك غاية العز والرفعة.

٢ـ محبته سبحانه وحمده وإجلاله وتعظيمه:

(فمع ظهور آثار قيوميته سبحانه لكل شيء من المخلوقات جامدها ومتحركها فاجرها وتقيها إلا أن لآثار قيوميته سبحانه بأوليائه وبمن أحبه شأنًا آخر وطعمًا خاصًا يظهر في حفظه ولطفه ورعايته بعباده المتقين... وهذا يقتضي محبة الله عز وجل المحبة التامة والركون إليه والتعلق به وحده والسكون إليه والرضا بتدبيره... وفي ذلك يقول الإمام ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى: [هو سبحانه [القيوم] المقيمُ لكلِّ شيءٍ من

المخلوقات طائِعِها وعاصيها... فكيف تكون قيوميته بمن أحبَّه وتولاه وآثره على ما سواه ورضي به من دون الناس حبيبًا وربًّا ووكيلا وناصرًا ومعينًا وهاديًا؟)[1].

٣ـ الخوف منه سبحانه ومراقبته:

لأنه القائم على كل نفس المتولي أمرها الحافظ لأعمالها الذي لا يخفى عليه شيء من أمرها... يقول الله عزوجل: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾ [ق١٦].

إن هذه الآية كما تأملها سيد قطب رَحِمَهُ ٱللَّهُ (ترسم للقلب البشري طريقه الوحيد الذي لا فكاك عنه ولا محيد وهو من أول الطريق إلى آخره في قبضة الله لا يتملص ولا يتفلت وتحت رقابته التي لا تفتر ولا تغفل وإنها لرحلة رهيبة تملأ الحس روعة ورهبة.. وكيف بإنسان في قبضة الجبار لمطلع على ذات الصدور؟ وكيف بإنسان طالبه هو الواحد الديان الذي لا ينسى ولا يغفل ولا ينام)[2].

(فيا لله ما أجمل أن يستحضر كلُّ أحدٍ هذه الآية إذا امتدت عينُه إلى خيانة، أو يدُه إلى حرام، أو سارت قدمُه إلى سوء، أو تحرك لسانُه بقبيح... وما أروع أن تكون هذه الآية نُصْبَ أعيننا إذا أردنا القيام بما أنيط بنا من عمل)[3].

---

(١) ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها ص ١٦٣.
(٢) في ظلال القرآن ج٦ ص ٣٣٦٢.
(٣) ارتسامات ص ١١ الشيخ محمد إبراهيم الحمد.

لا تأخذه سنة ولا نوم

[لا تأخذه سنة ولا نوم]

ومن كمال حياته وقيوميته أنه (لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ] لأن السِّنَةَ والنوم إنما يعرضان للمخلوق الذي يجري عليه الضعف والعجز والانحلال ولا يعرضان لذي العظمة والكبرياء والجلال.. فالله عزوجل لا يعتريه نوم ولا يغلبه نعاس لأنه قائم بتدبير أمور خلقه آناء الليل وأطراف النهار.. وهذه الجملة مؤكدة لما قبلها مقررة لمعنى الحياة والقيومية الدائمة الكاملة.. فهو سبحانه شهيد على كل شيء لا يغيب عنه شيء ولا تخفى عليه خافية.

(فالسهو والنوم صفات بشرية يتنزه الله عنها كما أنه يتنزه عن كل أفعال وحركات البشر.. فالسهو والنوم يكون لمن يحل عليه التعب واللغوب وتظهر عليه أمارات الإرهاق.. أو لمن لا يجد وسيلة لمعالجة أموره إذا عجز عنها.. ولكن الله سبحانه وتعالى منزه عن هذا كله وعن هذه الصفات التي هي لخلقه)[١].

(والنوم نقص من حيث الكمال الذاتي لأن الإنسان الذي ينام معناه أن بدنه يتعب فيحتاج إلى نوم يستريح به مما مضى ويستجد به النشاط لم يستقبل ولهذا فإن أهل الجنة لا ينامون لكمال حياتهم وأبدانهم ولا يلحقهم مرض ولا نحوه)[٢].

لذا جاء في الصحيح عن أبي موسى رضي الله عنه قال: قام فينا رسول الله ﷺ بأربع كلمات فقال: «**إن اللّه عز وجل لا ينام ولا ينبغي له أن ينام.. يخفض القسط ويرفعه.. يرفع إليه عمل الليل قبل عمل النهار وعمل النهار قبل عمل الليل.. حجابه النور لو كشفه لأحرقت سبُحاتُ وجهه ما انتهى إليه**

(١) آيات الله في خلق الكون ونشأة الحياة في السماء الدنيا والسموات السبع ص ٢٤٢.. د. ماهر الصوفي.
(٢) تفسير آية الكرسي.. الشيخ ابن العثيمين رحمه الله.

بصره من خلقه»[1].

فسبحان الله ما أعظمه؟

كيف يعصيه المخلوق الضعيف وهو بهذه القدرة والعظمة؟!

لذا (فالله ليس بحاجة إلى الراحة والنوم.. فالنوم منشأ التعب والإجهاد.. ثم أي سهوة أو سنة أو غفوة أو نوم يقع من الله سبحانه وتعالى -وحاشا لله ذلك- فلو أنه حدث فإن السماوات والأرض وحتي الجنة والنار تهوي على غير قرار ولم يعد شيئا يسمي كونا أو وجودًا أو حياة.. فأنت كإنسان حينما تنام تفقد الأهلية في مراقبة ما كنت تستطيع أن تراقبه وأنت بحالة اليقظة.

فإن كنت قائدًا لسفينة فإنك تستطيع أن تقودها وأنت في حال اليقظة.. ولكن هل تستطيع وأنت في حال النوم؟! وحتي لو كنت تقودها وأنت في حال اليقظة ثم سهوت لثوان فربما تضيع السفينة ومن عليها وتهوي في قرار لا عودة منه..

فكيف بمن يملك زمام السماوات السبع والأراضين السبع وما بينهما وما فوقهما وأمر الجنة وأمر النار وأمر مالا نعلم.. فكيف يسهو وكيف ينام؟)[2].

وما أجمل ما قاله الأستاذ سيد قطب رَحِمَهُ اللَّهُ في ظلال هذه الآية: (وهذا توكيد لقيامه سبحانه على كل شيء وقيام كل شيء به ولكنه توكيد في صورة تعبيرية تقرب للإدراك البشري صورة القيام الدائم في الوقت الذي تعبر فيه هذه الصورة عن الحقيقة الواقعة من مخالفة الله سبحانه لكل شيء.. ﴿ليس كمثله شيء﴾ وهي تتضمن نفي السنة الخفيفة أوالنوم المستغرق وتنزهه سبحانه عنهما إطلاقا.. وحقيقة القيام على هذا الوجود بكلياته وجزئياته في كل وقت وفي كل حالة.. حقيقة هائلة

(١) رواه مسلم [١٧٩].. سبحات: جمع سُبحة وهي ما يفيض عن الذات الجميلة من لآلي النور ونوابض الحسن وأشعة الجمال.. وهذا دليل عَلَى عظمة الله عَزَّ وَجَلَّ، وعلى أنه لا يستطيع البشر أن يتخيلوا ولا أن يدركوا كنه ذاته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فهو كما قَالَ [[illegible]] [طه١١٠].

(٢) آيات الله في خلق الكون ونشأة الحياة في السماء الدنيا والسموات السبع ص ٢٤٣.

حين يحاول الإنسان تصورها وحين يسبح بخياله المحدود مع ما لا يحصيه عد من الذرات والخلايا والخلائق والأشياء والأحداث في هذا الكون الهائل ويتصور بقدر ما يملك قيام الله سبحانه عليها وتعلقها في قيامها بالله وتدبيره.. إنه أمر.. أمر لا يتصوره الإدراك الإنساني وما يتصوره منه وهو يسير هائل يدير الرؤوس ويحير العقول وتطمئن به القلوب)[1].

أخي في الله...

إن التأمل في قوله تعالى: ﴿لا تأخذه سنة ولا نوم﴾ يسكب في القلب السكينة والطمأنينة... كما يبعث في القلب الرهبة والخشية.

أما من حيث السكينة والطمأنينة.. فهي رسالة واضحة من الله عزوجل إلى عباده محتواها [أتريدون تطمينًا من إله لمألوه.. ومن معبود لعابد.. ومن خالق لمخلوق أكثر من أنه يقول للعابد المخلوق: (نم أنت ملء جفونك واسترح لأن ربك لا ينام) ماذا تريد أكثر من هذا؟ هو سبحانه يعلم أنه خلقك وأنك تحتاج إلى النوم وأثناء نومك فهناك أجهزة في جسمك تعمل.. أإذا نمت وقف قلبك؟.. أإذا نمت انقطع نفسك؟.. أإذا نمت وقفت معدتك من حركتها الدودية التي تهضم؟.. أإذا نمت توقفت أمعاؤك عن امتصاص المادة الغذائية؟.. لا، بل كل شيء في دولابك يقوم بعمله.. فمن الذي يُشرف على هذه العمليات لو كان ربك نائما؟

إذن فأنت تنام وهو لا ينام.. وبالله هل هذه عبودية تُذلنا أو تُعزنا؟.. إنها عبودية تُعزنا فالذي نعبده يقول: ناموا أنتم؛ لأنني لا تأخذني سنة ولا نوم)[2].

أما من حيث الرهبة والخشية.. فإن معرفة العبد أن الله لا تأخذة سنة ولا نوم يثمر في القلب مراقبة الله - عز وجل في السر والعلن.. في الليل والنهار.. في الخلوة

(١) في ظلال القرآن ج١ ص ٢٨٧.
(٢) تفسير الشعراوي ج٢ ص ١٠٩٧.

والجلوة.. لأنه سبحانه مع عبده لا تخفى عليه خافية.. يسمع كلامنا ويرى مكاننا ويعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور.. فإذا ما تيقن العبد من رقابة الله تعالى عليه (أورثه ذلك التقوى وراقب نفسه أن لا يراها حيث نهاها ولا يفتقدها حيث أمرها.. وتأتيه المغريات والشهوات التي تدير الرؤوس يسوقها شياطين الجن والإنس كي يدخلوا العباد في متاهات الباطل وظلمات الفساد.. فتأتي رقابة الله التي استقرت في قلب العبد فكانت حماية ووقاية.. علم العبد أن الله رقيب عليه عالم به وعلم أن الملائكة الكرام الكاتبين الذين يرقبون أعماله وأقواله ويطلعون عليه ويدونون كل ما يصدر عنه)[1].

إن الإنسان (ليرجف ويضطرب ويفقد توازنه وتماسكه حين يشعر أن السلطان في الأرض يتتبعه بجواسيسه وعيونه ويراقبه في حركته وسكونه وسلطان الأرض مهما تكن عيونه لا يراقب إلا الحركة الظاهرة وهو يحتمي منه إذا آوى إلى داره وإذا أغلق عليه بابه أو إذا أغلق فمه! أما قبضة الجبار فهي مسلطة عليه أينما حل وأينما سار وأما رقابة الله فهي مسلطة على الضمائر والأسرار.. فكيف؟.. كيف بهذا الإنسان في هذه القبضة وتحت هذه الرقابة؟!)[2].

فيا ويل الغافلين.. ويا ويح المفرطين..

فالعجب كل العجب ممن يخشى من رقابة البشر الذين ينعسون وينامون وينسون ويغفلون ولا يخشى من رقابة الحي القيوم الذي لا تأخذه سنة ولا نوم ﴿ يَسۡتَخۡفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسۡتَخۡفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمۡ إِذۡ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرۡضَىٰ مِنَ ٱلۡقَوۡلِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعۡمَلُونَ مُحِيطًا ﴾ [النساء ١٠٨].

وهكذا إذا علم المسلم عظمة رقابة الله المطلقة راقب الله في تصرفاته وعباداته

(١) أسماء الله الحسنى الهادية إلى الله والمعرفة به ص ١٧١ .. د. عمر الأشقر.
(٢) في ظلال القرآن ج٦ ص٣٣٦٢.

ومعاملاته وسائر أحواله وفي ذلك صلاح دنياه وآخرته وبلوغه أعلى درجات الإيمان وهو الإحسان وهو أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك.

(إنه عالم واسع يفيض بالحب، ويفيض بالتقوى، ويفيض بالأمل، ويفيض بالرهبة، ويفيض بالنور.. الإنسان في مواجهة مولاه بنفسه جميعًا.. بكل جوارحها وكل خلجاتها.. بظاهرها وباطنها.. بدقائقها ولطائفها.. بأسرارها وما هو أخفى من الأسرار وكلها مكشوفة لله..

يا الله! إنها الرهبة والقشعريرة تملأ النفوس... عين الله البصيرة النافذة إلى كل شيء في هذا الوجود إلى كل نأمة وكل خاطرة وكل فكرة وكل شعور.. إنها تراك وترقبك سواء كنت متيقظًا لهذه المراقبة أم غافلاً عنها وسواء أعددت نفسك لها أم كنت من المعرضين.

وإنه لخير لك أن ترى الله كما يراك.. خير لك أن تتوجه إلى حيث ترقبك العين البصيرة النافذة فتأمن المفاجأة!

إنها الرهبة في الحالين.. الرهبة في حضرة المولى العزيز العليم القوي الجبار.. ولكنها الرهبة والأمل هنا والرهبة والذعر هناك!

الرهبة والأمل وأنت متوجه إلى الله مخلص له قلبك عامل على رضاه.

والرهبة والذعر حين تتوجه بعيدًا عنه وهو من ورائك محيط! فخير لك إذن أن تعبد الله كأنك تراه!

وحين تتوجه إليه بنفسك جميعًا.. ظاهرها وباطنها.. وسرها ونجواها.. وحين تتوجه إليه وفي نفسك شعور التقوى الخاشعة والرهبة العميقة.. فلا شك أنك ستنظف نفسك وتحرص على نظافتها)[1].

---

(١) قبسات من الرسول لمحمد قطب ص٨٣- ٨٥ بتصرف.

لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ

لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ

جميع ما في السموات وما في الأرض هم ملكه وعبيده مقهورون بعزته خاضعون لسلطانه ومشيئته وهو المصّرف لجميع شئونهم والحافظ لوجودهم والرقيب عليهم لإفتقارهم إليه وتكفله بهم تكفل الرب الإله الرحمن الرحيم ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحۡمَٰنِ عَبۡدٗا ﴿٩٣﴾ لَّقَدۡ أَحۡصَىٰهُمۡ وَعَدَّهُمۡ عَدّٗا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمۡ ءَاتِيهِ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فَرۡدًا﴾ [مريم ٩٣- ٩٥].

لأنهم يعرفون بعمق وجودهم أنهم مخلوقون له ومحتاجون إليه من دون فرق بين مخلوق ومخلوق.. فمهما ارتفعت درجات بعضهم عن بعض فإنها لا ترتفع عن درجة العبودية لله.. لأن امتيازاتهم الذاتية تتحرك في دائرة العبودية والحاجة إليه في طبيعة الوجود والاستمرار ولعل المراد بإتيان كل هؤلاء للرحمن في مواقع العبودية هو انقيادهم في وجودهم وفي إطاعتهم لله على أساس الإحساس بالعبودية والاعتراف بها بين يديه..

فالجميع عبيده فلماذا يتكبرون؟! وفي ملكه فلماذا على معصيته يجترئون؟! وتحت قهره وسلطانه فلماذا يظلمون؟!

وهذه الجملة تأكيد ثان لقيوميته واحتجاج بها على تفرده في الألوهية لأنه تعالى خلقهما بما فيهما... وجاء (ذكر السموات بالجمع للإشارة إلى ملكية كل دقائقها وكل نواميسها وسننها فهو الذى يغير فيها ويبدل وهو الذى أوجدها على ذلك النسق البديع المحكم الذى ربط أجزاءها بأواصر قوية وكان إفراد الأرض مع جمع السموات للإشارة إلى وحدتها فى الجملة بالنسبة لعالم السموات وإن كانت الارض طبقات؟ وللإشارة إلى أن ما فى الأرض ليس إلا مظهرًا من حركات السماء وأن الأرض شيء صغير بجوار السموات وما فيها والجملة الإسمية تفيد الملكية المطلقة

لرب العالمين فيملك ما فيها من حى وجماد ومن ناطقين وغير ناطقين والجميع فى قبضة العليم الخبير.

وتقديم الجار والمجرور وهو «له» لإفادة القصر أى ملك السموات والارض له سبحانه فليس لأحد سواه فهو المنفرد بالسلطان فيها والملكية لها؟ فهذا القصر يدل على الوحدانية فى الخلق والتكوين كما يدل قوله تعالى ﴿لا إله إلا هو﴾ على الوحدانية فى العبادة)[1].

- **لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ:**

خلقًا وملكًا وتدبيرًا وتصريفا فهو سبحانه المتفرد بالألوهية لأنه الخالق الرازق المالك المصرف وكل ما سواه عبيد له.

- **خلقًا:**

خلق الله عزوجل المخلوقات كلها وأوجدها على غير مثال سابق ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٞ﴾ [الزمر ٦٢].

خلق جميع المخلوقات في العالم العلوي والعالم السفلي.. خلق العرش والكرسي.. وخلق السموات والأرض.. وخلق الجماد والنبات.. وخلق الإنسان والحيوان.. والروح والجان.. والملائكة الكرام.. وخلق السهول والجبال.. وخلق البحار والأنهار.. وخلق الليل والنهار.. وخلق الشمس والقمر.. وخلق الكواكب والنجوم.. وخلق الجنة والنار ﴿هَٰذَا خَلۡقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ﴾ [لقمان ١١].

(إنها الحقيقة التي ينطق بها كل شيء.. فما يملك أحد أن يدعي أنه خلق شيئًا وما يملك عقل أن يزعم أن هذا الوجود وجد من غير مبدع وكل ما فيه ينطق بالقصد

(١) زهرة التفاسير ج ٢ ص٩٣٥ - ٩٣٦.

والتدبير وليس أمر من أموره متروكًا للمصادفة من الصغير إلى الكبير)[1].

وهذا ما أقر به المشركون ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [لقمان ٢٥].

(وما يملك الإنسان حين يستفتي فطرته ويعود إلى ضميره أن ينكر هذه الحقيقة الواضحة الناطقة.. فهذه السماوات والأرض قائمة مقدرة أوضاعها وأحجامها وحركاتها وأبعادها وخواصها وصفاتها.. مقدرة تقديرا يبدو فيه القصد كما يبدو فيه التناسق وهي قبل ذلك خلائق لا يدعي أحد أنه خلقها ولا يدعي أحد أن خالقا آخر غير الله شارك فيها ولا يمكن أن توجد هكذا بذاتها ثم لا يمكن أن تنتظم وتتسق وتقوم وتتناسق بدون تدبير بدون مدبر.. والقول بأنها وجدت وقامت تلقائيا أو فلتة أو مصادفة لا يستحق احترام المناقشة فضلا على أن الفطرة من أعماقها تنكره وترده.. وأولئك الذين كانوا يواجهون عقيدة التوحيد بالشرك ويقابلون دعوة رسول الله بالجدال العنيف لم يكونوا يستطيعون أن يزيفوا منطق فطرتهم حين تواجه بالدليل الكوني الممثل في وجود السماوات والأرض وقيامهما أمام العين لا تحتاجان إلى أكثر من النظر ومن ثم لم يكونوا يتلجلجون في الجواب لو سئلوا ﴿من خلق السماوات والأرض﴾ وجوابهم ﴿الله﴾)[2].

إن الخلق كلهم لو اجتمعوا ما استطاعوا أن يخلقا ذبابًا.. بل لو سلبهم الذباب شيئًا ما استطاعوا رده كما قال سبحانه ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ﴾ [الحج ٧٣].

(وخلق الذباب مستحيل كخلق الجمل والفيل لأن الذباب يحتوي على ذلك

---

(١) في ظلال القرآن ج ٥ ص ٣٠٦١.

(٢) في ظلال القرآن ج ٥ ص ٢٧٩٤.

السر المعجز.. سر الحياة.. فيستوي في استحالة خلقه مع الجمل والفيل.. ولكن الأسلوب القرآني المعجز يختار الذباب الصغير الحقير لأن العجز عن خلقه يلقي في الحس ظل الضعف أكثر مما يلقيه العجز عن خلق الجمل والفيل دون أن يخل هذا بالحقيقة في التعبير وهذا من بدائع الأسلوب القرآني العجيب)[1].

ألا ما أعظم قدرة الخلاق العليم..

وما أجهل البشر بعظمة ربهم وقدرته وقوته وعظمة مخلوقاته..

فمن أعجب العجب وأسفه السفه أن يعلم الإنسان أن الله ليس له شريك في الخلق والرزق والتدبير ولا في العبادة ثم يشرك به غيره ويعبد معه آلهة أخرى لا تملك لنفسها ولا لغيرها نفعًا ولا ضرًا ﴿ أَيُشۡرِكُونَ مَا لَا يَخۡلُقُ شَيۡـٔٗا وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ ١٩١ وَلَا يَسۡتَطِيعُونَ لَهُمۡ نَصۡرٗا وَلَآ أَنفُسَهُمۡ يَنصُرُونَ ﴾ [الأعراف ١٩١-١٩٢].

- **ملكًا:**

الله هو الملك الحق للسماوات والأرض وما فيهما وما بينهما لأنه خالقهما فلا يخرج شيء من خلقه عن ملكه، وهذا يقتضي أنه سبحانه المدبر لهما المتصرف فيهما كما يشاء بقدرة مطلقة لا مانع لما أعطى ولا معطي لما منع ولا يعجزه شيء في السماوات ولا في الأرض، وهذا الملك العظيم لله تعالى يتصرف فيه سبحانه بعلمه وحكمته ورحمته وعدله، فله الحمد في ملكه وخلقه وفي أفعاله وصفاته كلها ﴿لِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا فِيهِنَّۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرُۢ﴾ [المائدة ١٢٠].

إن حقيقة الملك إنما تتم بالعطاء والمنع.. والإكرام والإهانة.. والإثابة والعقوبة والغضب والرضا.. والتولية والعزل.. وإعزاز من يليق به العز وإذلال من يليق

(١) المصدر السابق ج ٤ ص ٢٤٤٤.

به الذل ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾ تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيْلِ وَتُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [آل عمران ٢٦ - ٢٧].

ألا ما أعظم ملك الله عزوجل.. وما أحوج جميع المخلوقات إليه سبحانه ﴿ يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴾ [الرحمن ٢٩].

- **كل يوم هو في شأن:**

يغني فقيـــرًا ويجبر كسيرًا ويشفي مريضًا ويعافي مبتلى ويهدي ضالاً ويرد غائبًا ويتوب على تائب ويغفر لمستغفر ويستـر على مذنـب ويتجاوز عن مسيء.

- **كـل يوم هو في شأن:**

ينصر مظلومـًا ويغيث ملهوفـًا ويجيب داعيـًا ويعطي سائلاً ويكشف سوءًا ويزيل همًا ويذهب غمًا ويزيل حزنًا.

- **كل يوم هو في شأن:**

يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل يؤتي الملك من يشاء ويرزق من يشاء بغير حساب.

- **كل يوم هو في شأن:**

يفلق الإصباح ويسخّرالشمس والقمر ويمسك السماء والأرض ويسكن البحر ويرسي الجبال وينشيءالبرق والرعد.

- **كل يوم هو في شأن:**

يعلم السرائر ويطلع على الضمائر ويكشف الخوافي.

ويحيط بالأمور ويفعل مايشاء.. يحكم مايريد لاغالب لحكمه ولاراد لقضائه لا

منجى ولا ملتجأ منه إلا إليه[1].

أخي في الله...

إن التأمل والتفكر في إسم الله الملك (يهز المشاعر الوجدانية ويأخذ بمجامع القلوب الزكية ويملك على كل نفس مؤمنة حسها وأنسها فتخشع لعظمته وتخضع لجبروته وتلوذ بجلاله وعزته وتطمع في كرمه ورحمته فتتقلب هذه النفوس المؤمنة بين الخوف والرجاء ضارعة مستجيبة صابرة شاكرة راضية مستسلمة لعلمها أن الملك الحق مع جبروته رحيم بعباده ومع استغنائه عنهم لطيف بهم يحسن إليهم ويحمد لهم حسن أفعالهم وأقوالهم فملكه لم يقم على الغطرسة والاستبداد والبطش ولكن قام على الرحمة والعدل.. ينتقم ممن طغى وتكبر وأساء وظلم ويرحم من تواضع وعفا وأحسن وأصلح)[2].

* مظاهر ملك الله تعالى[3]:

المظهر الأول:

الله تعالى له المُلْك وله الحمد على ذلك الملك:

قال الله تعالى: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ لَهُ ٱلۡمُلۡكُ وَلَهُ ٱلۡحَمۡدُۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ﴾ [التغابن١]... هذه الآية تشير إلى أنه إذا كان له الملك فليس له الملك فقط وإنما له الملك وله الحمد على هذا المُلْك.. فكأنه سبحانه وتعالى يقول في هذه الآية له الحمد مع الملك.. وهذا يخالف مُلْكَ البشر.. فمن الممكن أن يكون المرء مَلِكًا في الدنيا وعظيمًا فيها لكن لا يُحْمَدُ على أفعاله ولا يُثْنَى عليه فيها وإنما هو ظالم جائر أو

---

(١) العظمة.. د. عائض القرني ص ٢٣٢- ٢٣٣ بتصرف.

(٢) أسماء الله الحسنى آثارها وأسرارها ص ٢٣.

(٣) نقلا من كتاب الفتوحات الإلهية شرح الأسماء الحسنى للذات العلية [المَلِكُ والمَالِكُ والمَلِيكُ سبحانه وتعالى]... ص ٣٥ -٤٢ مع بعض الإختصار.. الشيخ محمد الدبيسي.

فاسق فاسد أو غير ذلك من الأوصاف التي تنزل به والسؤال: أيكون هذا الحمد والمُلك مخالفا لمُلك البشر حتى لو كان هذا المَلِك من البشر صالحًا؟ الجواب: نعم؛ يمكن أن يكون صالحًا ولكن لا يأخذ الحمد الذي لله تعالى لأن كل الصفات التي تستحق الحمد والثناء إنما هي مُختصَّةٌ بالله تعالى لم يحصلها أحد من البشر بل كل ما يحصله البشر إنما هو محض فضل الله تعالى.

المظهر الثاني:

الله هو المَلِكُ له المغفرة والمؤاخذة وهو على كل شيءٍ قديرٌ:

فالله تعالى إذا كان له الملك فله المغفرة وله المؤاخذة لأن المُلك بيده علاوة على أن مصير كل شيء إليه فيقضي فيه بما شاء ﴿يَغۡفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۚ وَلِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَاۖ وَإِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ﴾ [المائدة ١٨].

لأنه يملك كل شيء ومن ثَمَّ هو مالك لعباده وهو جلَّ وعلا المتصرف فيهم وهو الحاكمُ عليهم الآمرُ الناهي لهم.. فمن استجاب فإنه يغفر له على ما كان منه ومن فسق وخرج فإنه شديد العقاب.

المظهر الثالث:

الله تعالى هو المَلِك يخلقُ ما يشاء:

قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَاۚ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ [المائدة ١٧].. هذه الآية لها علاقة بشيء آخر وصفة أخرى من مظاهر مُلْك الله تعالى وهي أنه ليس له ملك السماوات والأرض فقط.. بل له ملك السماوات والأرض وما بينهما.. فإذا كان ملوك الدنيا لهم شيءٌ في الأرض فليس لهم كل الأرض وليس لهم كل الزمان على الأرض وليس لهم فيها كل التحكم الذي يمكن أن يكون لله.. وإنما إن تحكم في شيء لا يتحكم في بقية الأشياء.. وإن أَمَر أو نَهَى فإنه لا يملك الأرض ومن عليها وإن مَلَكَ يومًا لا يَمْلِكُ بقية الأيام ويموت

وإن مَلَكَ فزائلٌ مُلْكُه.. أليس كذلك؟ وحتى لو مَلَكَ مُلوكُ الدنيا الأرضَ كلها فإنه ليس لهم شيء في السماوات أو فيما بين السماوات والأرض.

المظهر الرابع:

الله تعالى هو المَلِكُ بيده الإحياء والإماتة:

قال الله تعالى: ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ﴾ [الأعراف ١٥٨].

فالله سبحانه وتعالى له ملك السماوات والأرض وله الخلق وله الإحياء وله الإماتة.. وكل ذلك لا يستطيع أن يدعيه أحد من ملوك الأرض ولم يَدَّعِهِ أحدٌ إلا كذبًا في قصة النمروذ مع إبراهيم ﴿قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ﴾ [البقرة ٢٥٨] لما حكم على اثنين بالقتل قال أنا أحي وأميت: فعفا عن أحدهما على أنه قد أحياه وقتل الآخر على أنه قد أماته!!.. فلم يكن ذلك على الحقيقة إماتة أو إحياءً.

لذلك بَيَّن سبحانه وتعالى هذا المعنى: ﴿هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ﴾ وهو الذي يُقَوِّي قلبَ المؤمن ويجعله متعلقًا بربه أنه لا يُحييه أحدٌ ولا يُميته أحدٌ إلا ربه ولا يقدر على ذلك إلا الله جلَّ وعلا.. فكان ذلك توحيدًا لربه من هذا الوجه وإيمانًا به سبحانه وتعالى من هذا المنطلق الذي به ينبذ قلبه مَنْ في الأرض جميعًا لا يقوم له فيها أحدٌ ولا يُخيفه أحد ولا يَخْشى أحدًا إلا الله.

المظهر الخامس:

الله تعالى هو الملك يملك الرزق:

ليس له المُلْك فقط.. بل له الملك والرزق.. فإن المَلِك يمكن أن يملك ولكنه لا يملك أن يرزق أحدًا بل لا يملك أن يرزق نفسه فضلاً عن أن يملك لغيره الرزق.. لذلك قال سبحانه وتعالى في الرزق ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [يونس٣١].. يعني: لا يملك الرزق إلا هو سبحانه وتعالى.

وكانت الآية المقابلة لها قوله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمۡلِكُونَ لَكُمۡ رِزۡقٗا فَٱبۡتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزۡقَ وَٱعۡبُدُوهُ وَٱشۡكُرُواْ لَهُۥٓۖ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ [العنكبوت ١٧].

المظهر السادس:

الله تعالى هو المَلِكُ وإليه المصير:

وكذلك له المرجع وله المصير.. يعني: كل ملك في الدنيا لا يأمن على نفسه أن يموت غدًا فينتهي أمرُه.. أما المَلِكُ – مَلِك الملوك جلَّ وعلا فيقول:

﴿وَلِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَاۖ وَإِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ﴾ [المائدة ١٨].

ليس ثمَّ ملكٌ في الدنيا من قبل أو من بعد أن حَكَمَ حُكْمَه يُرْجِعُ الناسَ مرة أخرى إليه بعد أن يموتوا مثلاً بل على العكس كل ملك في الدنيا لا بد أن يموت ثم مرجعه إلى الله تعالى ومصيره إليه.. بل الدنيا كلها مرجعها إليه ومصيرها إليه سبحانه.. بل رجوع الأمر كله لله جلَّ وعلا كما قال تعالى: ﴿لَّهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ﴾ [الحديد ٥].

المظهر السابع:

الله تعالى هو المَلِكُ وهو على كل شيء شهيدٌ:

وهنـــاك مظهر آخر من مظـــاهر ملك الله تعالى لا يستطيعه أحد إلا هو وهو المُلك مع الشهادة.. يعنـــي: أن الله على كل شيء شهيـــد.. وهـــذه كذلك يُفـــارِقُ فيها ملوكَ الدنيـــا.. قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِي لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ﴾ [البروج ٩].. أليس كذلك؟.. إذن له المُلك وله الشهادة على ممالكيه وليس على ظاهرهم فقط وإنما على ظاهرهم وباطنهم ويعلم السر وأخفى وليس ذلك فقط.. بل هو شهيدٌ عليهم يعني: ناظرٌ إليهم.. مطلعٌ عليهم.. سميعٌ بهم.

فمن الذي له شيء من ذلك في الشهادة؟ هل هناك ملك في الدنيا يستطيع أن يشهد

خلقه وأن يَحْضرهم وأن يراهم يفعلون ويقولون ويتكلمون؟! وإن حَضَر أحدًا في الظاهر هل يستطيع أن يَحْضَر باطنَهم وما كان وما يمكن أن يكون مما يفكرون فيه أو مما يمكن أن يحدث لهم بعد ذلك؟

المظهر الثامن:

الله تعالى هو المَلِكُ لا شريك ولا ولدَ له:

ومن مظاهر ملكه كذلك نفي الشريك والولد.. لا يكون ملكًا أو مالكًا للملك من كان معه شريك.. فهذا الملك كله لمن؟ لله تعالى.. من الذي يدَّعي أنه قد خلق شيئًا فتملَّكه في الأولى والآخرة أو فيما كان أو فيما هو كائن اليوم؟! وكذلك وجود الولد ينفي المُلْك التام لأن وجود الولد يمكن أن يكون سببًا لميراث هذا الملك وقد قال الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مِيرَاثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الحديد١٠] فكيف يرثه غيرُه سبحانه وتعالي؟!

لذلك قال تعالي: ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا﴾ [الإسراء ١١١].. لأنه كما قال تعالى ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء ٢٢]... كذلك اتخاذ الولد يدل على الضعف ويدل على نفي الملك التام لأنه يدل على طلبِ المساعدة والقيام بأوامره ومن يقوم له به ومن يضعه في محل ثقته حتى يكون سببًا لتيسير ملكه وتيسير أموره وأحواله.. والله تعالى متنزهٌ عن ذلك كلِّه جلَّ وعلا.

* تدبيرًا:

الله عزوجل هو القائم على جميع المخلوقات بالتدبير والتصريف يمد هذه الخلائق في كل وقت بما جعله قوامًا لها... فهو سبحانه يدبر أمور كل شيء في الأكوان كلها من أصغر مخلوق حتي أكبر مخلوق.

فإذا أردت أن تري صورة من تدبير الله تعالى لهذا الكون فانظر إلى السماء وتأمل (القمر هذا الكوكب المنير.. ما الذي جعله مَبعثًا لهذا النور اللطيف ينير أرجاء الأرض في ظلام الليل البهيم فيطمئن قلب الخائف المرتاع ويبعث السلوة في قلب الحزين الملتاع.. من الذي جعل شعاعه في هذا اللطف من الإنارة فلا وهج ولا حرارة في وقت أشد ما يكون الإنسان فيه بحاجة إلى الراحة؟

من الذي جعله يسير هذا السير المنظَّم فلا يستقدم في سيره ولا يستأخر لحظة ولا يخرج عن مداره المخصص به أنملة؟.. فإذا ما تمَّ دورته عاد وليدًا وبدأ شهرًا جديدًا فعرَّفنا عدد السنين والحساب وجعلنا نفرِّق بين الأشهر والأيام وكان في ذلك كله آية من أعجب الآيات!.

بل انظر إلى الشمس وما فيها من آيات وأنه لولا الشمس لما نبَتَ نبتٌ ولا حُصد زرع ولا نضجت ثمار ولما عاش إنسان ولا حيوان ولولا الشمس لما تبخَّر ماء البحر ولما هبَّت الرياح ولما تكوَّنت الغيوم ونزلت الثلوج والأمطار.

ولولا الشمس لما تكوَّنت الفصول ولا تشكَّل الليل والنهار..

فانظر أيها الإنسان إلى الشمس في خلقها وتكوينها فمن أين هي تستمد حرارتها وضياءها؟.. ولو قربت الكرة الأرضية منها بما فيها من بحار وأنهار وسهول وجبال وأتربة ومعادن وأحجار لذابت في لحظة.. لا بل لتبخَّرت جميعها ولأصبحت كالدخان.. فمن أين تُوقد هذه الشمس؟.. وما الذي يجري فيها فإذا هي تشع لك هذا الشعاع وتمدُّك بهذه الحرارة والضياء؟

ثم انظر إلى الأرض واسأل نفسك ما هذه القدرة العظيمة التي ألقت في الأرض ما ألقت من جبال!... ما هذه القدرة العظيمة التي جعلت في الأرض السهول والبحار!.. من الذي أجرى في الأرض هذه العيون والأنهار؟

من الذي جعل في بطن الأرض ما جعل من معادن نستخدمها فيما نقوم به من الأعمال؟.. من الذي جعل لنا في هذه الأرض الأتربة والأحجار؟.. من الذي جعل التراب حاويًا المواد الغذائية المختلفة التي تمتصُّها النباتات؟

من الذي بثَّ في الأرض من كل دابة وجعلها كلها خدمًا للإنسان فهي قائمة بوظائفها التي يتأمَّن بها الخير ويطَّرد معها النظام وبقاء الحياة؟.. من الذي جعل في الأرض أنواعًا من الزروع وألوانًا من الثمرات وجعلها متعددة المنافع منوّعة الفواكه ضرورية لحياة هذا الإنسان؟)[1].

وتضيق الكتب ويعجز القلم ولا يستطيع أن يعبِّر لسان عما أوجده الله تعالى للإنسان في هذا الكون من أشياء كلها ضرورية وكلها تعمل متضافرة متضامنة في سبيل توفير ما يلزم لحياته.

(وحين يعيش الإنسان في هذا الكون مفتوح العين والقلب مستيقظ الحس والروح موصول الفكر والخاطر.. فإن حياته ترتفع عن ملابسات الأرض الصغيرة وشعوره بالحياة يتسامى ويتضاعف معا وهو يحس في كل لحظة أن آفاق الكون أفسح كثيرا من رقعة هذه الأرض وأن كل ما يشهده صادر عن إرادة واحدة مرتبط بناموس واحد متجه إلى خالق واحد وإن هو إلا واحد من هذه المخلوقات الكثيرة المتصلة بالله.. ويد الله في كل ما حوله وكل ما تقع عليه عينه وكل ما تلمسه يداه.. إن شعورا من التقوى وشعورًا من الأنس وشعورًا من الثقة لتمتزج في حسه وتفيض على روحه وتعمر عالمه فتطبعه بطابع خاص من الشفافية والمودة والطمأنينة في رحلته على هذا

(١) تأويل جزء عم ص ١٢٢- ١٢٩ بتصرف واختصار للأستاذ محمد أمين شيخو.

الكوكب حتى يلقى الله وهو يقضي هذه الرحلة كلها في مهرجان من صنع الله وعلى مائدة من يد الصانع المدبر الجميل التنسيق)[1].

أخي القاريء...

هل عرفت الملك جل وعلا؟

هل سألت نفسك لم لا يخشع الإنسان لربه ويخضع؟

لم يبارز ربه بالمعاصي ولا يرجع؟

لم تقسو القلوب وتجف العيون ولا تدمع؟

لم التكبر والطغيان والكون كله يسجد ويركع؟

﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَٱلسَّمَـٰوَٰتُ مَطْوِيَّـٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الزمر٦٧].

• حق قدره أن يُطاع فلا يعصي، ويُذكر فلا ينسي، ويُشكر فلا يكفر، ويُحب حبًا يملك على العبد كل حركة فيه.

• حق قدره أن يفوض الأمر إليه، ويتوكل عليه، ويرضي بحكمه، ويستسلم له، وينقاد لأوامره، ويذعن لقضائه.

• حق قدره أن لا يخالف، ولا يحارب، ولا يمثل، ولا يشبه، ولا يكيف، ولا تضرب به الأمثال، وتصرف لغيره الأعمال.

• حق قدره أن يقصد بالسعي، ويخلص له العمل، ويجرد له التعظيم، ويفرد بالربوبية والألوهية والأسماء والصفات.

الآثار الإيمانية والسلوكية لمعرفة العبد أن الله ﴿لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ﴾:

(١) في ظلال القرآن ج ٥ ص ٢٥٦٨.

١ـ توحيد الله عز وجل..

وعبادته وحده لا شريك له بالحب والخوف والرجاء لأن هذه العبادة لا يستحقها إلا الملك الحق فاطر السماوات والأرض المالك لهما المتصرف فيهما.. فإذا علم العبد أنه لا يملك شيئًا وأن المالك له هو الله تعالى وأنه الحق مستغنٍ عن كل شيء وكل شيء فقير إليه وكل شيء في قبضته يملكه.. حَمَله ذلك على معرفته بربه وتعلقه به وتوحيده إياه وعدم الالتفات إلى العبيد الزائلين.. فإنْ دعا دعا ربَّه.. وإن طلب فمنه.. وإن أخلص فله.. ينكسر بين يديه لِيَجْبره.. يفتقر إليه ليغنيه.. يذلُّ له ليعزه.. لا يدخل عليه إلا بالإفلاس الصِّرف والفقر المحض وهو حقيقة العبودية.

٢ـ الاعتصام بالله الملك الحق..

والاستعانة والاستغاثة به وحده إذا كثرت بك الهموم وحلّت عليك الغموم واشتدت بك الكروب وأظلمت أمامك الدروب ﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ﴾ [الحج ٧٨].

فهل يُهزم من اعتصم بجنابه؟

وهل يخاف من لجأ إلى محرابه؟

وهل يُحرم من انطرح على أعتابه؟

٣ـ اليقين بالله عزوجل..

وتعلق القلب به سبحانه في طلب رزقه واطمئنانه إلى ما كتب الله تعالى له مع أخذه بالأسباب التي أمر الله تعالى بها في طلب الرزق مع عدم تعلقه بها.. فالله عزوجل مالك لخزائن السماوات والأرض وملكه لا ينقص بالعطاء والإحسان بل يزداد..

كما جاء في الحديث القدسي: «**يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا في صعيد واحد فسألوني فأعطيت كل واحد مسألته ما**

نقص ذلك مما عندي إلا كما ينقص المخيط إذا أدخل البحر......»[1].

وكونه سبحانه ملكًا يقتضي كونه رازقًا لخلقه من خزائنه التي لا ينقصها العطاء ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزۡقُهَا وَيَعۡلَمُ مُسۡتَقَرَّهَا وَمُسۡتَوۡدَعَهَاۚ كُلّٞ فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ﴾ [هود ٦].

٤ـ التواضع لله عزوجل..

فالملك الحقيقي لله تعالى وملك العباد في الدنيا إنما هو ملك ناقص وعارية مستردة ولا يملكون إلا أن يملكهم الله تعالى.

فالعجب كل العجب ممن (يطغى ويظن أنه المالك الحقيقي وينسى أنه مستخلف فقط فيما آتاه الله من ملك ومال وجاه وسلطان.. فيتكبر ويتجبر ويظلم الناس بغير حق ويفسد في الأرض كما قال فرعون لقومه ﴿يَٰقَوۡمِ أَلَيۡسَ لِي مُلۡكُ مِصۡرَ وَهَٰذِهِ ٱلۡأَنۡهَٰرُ تَجۡرِي مِن تَحۡتِيٓۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ﴾ [الزخرف٥١] وقال لقومه ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾ [النازعات ٢٤].

فلما جنى هذه الجناية العظمى ودعا قومه إلى هذه الضلالة الكبرى واستجابوا له عاقبهم الله وأغرقهم جميعًا ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡ فَأَغۡرَقۡنَٰهُمۡ أَجۡمَعِينَ ۝٥٥ فَجَعَلۡنَٰهُمۡ سَلَفٗا وَمَثَلٗا لِّلۡأٓخِرِينَ﴾ [الزخرف ٥٥ -٥٦].

وإهلاك الله عزَّ وجلَّ لفرعون وقومه عبرة لكل ظالم متكبر من ملوك الأرض تفرعن على الناس فيما آتاه الله من ملك وظن أنه مخلد ونسي أن ملكه زائل وأن إقامته في ملكه مؤقتة وإن ربك لبالمرصاد لكل طاغية.. فسبحان ذي الجبروت والملكوت والكبرياء والعظمة)[2].

٥ـ التجرد لله عزوجل في القرب والقصد..

---

(١) جزء من حديث رواه مسلم [٢٥٧٧].

(٢) موسوعة فقه القلوب ج١ ص ١٤٤.. محمد بن إبراهيم التويجري.

فمن عَرَفَ أن الله تعالى هو المُتوحِّد بالمُلْك أَنِفَ أن يتذلل لمخلوق.. لأن المعرفة بمالكه توجب للمرء المؤمن التجردَ له في القُرْب إليه وقصده سبحانه وتعالى.. أي يتجرد له هو فقط جل وعلا.. فليس له ربٌ سواه ولا يشاركه في قلبه أحد يظن أنه ينفع أو يضر.. لا يشاركه في قلبه أحد يظن أنه يخافه أو يخشاه.. لا يشاركه في قلبه أحد يحبه كمحبة الله.. لا يشاركه في قلبه أحد يذكره كَذِكْرِهِ أو يُقْبِلُ عليه كإقباله أو يطمئن له كإطمئنانه.. لا يشاركه في ذلك شيء ولا يَجْمُل بالعبد المريد لله تعالى أن يتذلل للعبيد وهو يجد من مولاه ما يريد[١].

٦ـ الثقة في الله عزوجل...

فالمسلم الواثق بالله يُوقن بأنّ الله لن يتركه ولن يُضيعه إذا ما تخلى عنه كل من في الأرض فثقته بما عند الله أكبر من ثقته بما عند الناس.. لذا تراه دائمًا هادئ البال ساكن النفس إذا ادلهمت وزادت عليه الخطوب والهموم.

٧ـ محبة الله سبحانه وتعالى..

وفي ذلك يقول الإمام إبن القيم رحمه الله: (فاذا شهدت القلوب من القرآن ملكًا عظيمًا رحيمًا جوادًا جميلاً هذا شأنه فكيف لا تحبّه وتنافس في القرب منه وتنفق أنفاسها في التودد اليه ويكون أحب اليها من كل ما سواه ورضاه آثر عندها من رضا كل ما سواه؟.. وكيف لا تلهج بذكره ويصير حبه والشوق اليه والأنس به غذاؤها وقوتها ودواؤها بحيث إن فقدت ذلك فسدت وهلكت ولم تنتفع بحياتها؟)[٢].

---

(١) الفتوحات الإلهية شرح الأسماء الحسنى للذات العلية [المَلِكُ والمَالِكُ والمَلِيكُ سبحانه وتعالى] ص ٣١.
(٢) الفوائد ص٣٥.

مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ

مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ

ومن تمام ملكه وعظيم سلطانه أنه لا يتجاسر أحد على أن يشفع لأحد عنده إلا بإذنه له في الشفاعة.. فكل الوجهاء والشفعاء عبيد له مماليك لا يقدمون على شفاعة حتى يأذن لهم ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَـٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ﴾ [النَّجم ٢٦].

فالله لا يأذن لأحدٍ أن يشفع إلا فيمن ارتضى ولايرتضي إلا توحيده واتباع رسله فمن لم يتصف بهذا فليس له في الشفاعة نصيب... وهذا دليل على انفراد الله ّ بالملك والسلطان فهو المسيطر على كل شيء يعطى من يشاء ويمنع من يشاء ويأذن لمن يشاء ويعطى لمن يشاء وهو المنفرد بالأمر والتدبير.

وهكذا (فالعبيد جميعا يقفون في حضرة الألوهية موقف العبودية لا يتعدونه ولا يتجاوزونه.. يقفون في مقام العبد الخاشع الخاضع الذي لا يقدم بين يدي ربه ولا يجرؤ على الشفاعة عندهاإلا بعد أن يؤذن له فيخضع للإذن ويشفع في حدوده.. وهم يتفاضلون فيما بينهم ويتفاضلون في ميزان الله ولكنهم يقفون عند الحد الذي لا يتجاوزه عبد... إنه الإيحاء بالجلال والرهبة في ظل الألوهية الجليلة العلية يزيد هذا الإيحاء عمقا صيغة الاستفهام الاستنكارية التي توحي بأن هذا أمر لا يكون وأنه مستنكر أن يكون فمن هو هذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه)[١].

الله أكبر..

أين الوجهاء.. أين الشفعاء.. أين الكبراء.. أين العظماء؟!

كلهم عبيد لله جل جلاله ﴿وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَرْدًا﴾ [مريم ٩٥] كلهم

(١) في ظلال القرآن ج ١ ص ٢٨٨.

عبيد له مماليك لا يقدمون على شفاعة حتى يؤذن لهم ولابد من رضا الله عز وجل عن الشافع والمشفوع له.

كلهم عبيد لله تعالى.. لا قيام لهم إلا بأمره عز وجل.. ففي أرضه يمشون وتحت قهره يعيشون.. وبأمره يسيرون.. وفي سلطانه يتحركون.. ومن رزقه يأكلون.. لا حول لهم ولا قوة إلا بالله العزيز الحكيم.

والشفاعة اصطلاحًا هي التوسط للغير بجلب منفعة (كشفاعة النبي ﷺ لأهل الجنة بدخولها) أو دفع مضرة (كشفاعة النبي ﷺ لمن استحق النار أن لا يدخلها).

والشفاعة في الآخرة تنقسم إلى قسمين:

١. الشفاعة المنفية[1]:

هي شفاعة الآلهة المزعومة التي عُبدت من دون الله تعالى

قال تعالى: ﴿ وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمۡ وَلَا يَنفَعُهُمۡ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِۚ قُلۡ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعۡلَمُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴾ [يونس ١٨].

(إن هؤلاء الذين افتروا على الله بالشرك به واتخذوا أصناما باطلة لا تضرهم ولا تنفعهم يقولون عن هذه الأصنام إنها تشفع لهم عند الله في الآخرة.. ويأمر الحق سبحانه رسوله محمدًا ﷺ أن يبلغ المشركين: هل تخبرون الله بشريك لا يعلم الله له وجودا في السماوات ولا في الأرض وهو الخالق لكل ما في السماوات والأرض ومُنزه سبحانه عن أن يكون له شريك في المُلك... لقد أرادوا أن يخلوا بقضية التوحيد ويجعلوا لله شركاء ويقولون إن هؤلاء الشركاء هم الذين سيشفعون لنا

---

(١) راجع الآيات التي تحدثت عن نفي الشفاعة للمشركين.. وهي علي سبيل المثال: الزخرف [٨٦].. الأنعام [٥١].. الأعراف [٥٣].. الروم [١٣].. الزمر [٤٣].

عند الله.. فيقول الحق سبحانه إن الشفاعة لا يمكن أن تكون عندي إلا لمن أذنت له أن يشفع... إن الشفاعة ليست حقا لأحد ولكنها عطاء من الله)[1].

فلا شفاعة لكافر في دخول الجنة لأن الجنة محرمة على الكافرين ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ﴾ [المدثر ٤٨].. فالشفاعة لا تكون إلا لأهل التوحيد.. فمن كان ولاؤه لغير الله ورسوله والمؤمنين فهو محروم.

ومن كان من جند الباطل يسعى في نصرة مذهب هدام فهو محروم.

ومن اعتقد أن غير منهج الله هو الأصلح للحياة فهو محروم.

ومن سخر أو جحد أو أنكر من منهج الله فهو محروم.

ولذا فإن الله تعالى لا يقبل شفاعة خليله إبراهيم في أبيه آزر المشرك...

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «**يلقى إبراهيم أباه آزر يوم القيامة وعلى وجه آزر قترة وغبرة.. فيقول له إبراهيم: ألم أقل لك لا تعصيني.. فيقول أبوه: فاليوم لا أعصيك.. فيقول إبراهيم: يا رب إنك وعدتني أن لا تخزيني يوم يبعثون فأي خزي أخزى من أبي الأبعد. فيقول الله تعالى: إني حَرمت الجنة على الكافرين ثم يقال: يا إبراهيم انظر تحت رجلك فينظر فإذا هو بذيخ -ذكر الضبع- متلطخ (أي في رجيع أو دم أو طين) فيؤخذ بقوائمه فيلقى في النار**»[2].

٢ـ الشفاعة المثبتة:

وشروطها ثلاثة: إذن الله تعالى بها.. ورضاه عن الشافع.. ورضاه عن المشفوع له... وهي أنواع:

---

(١) تفسير الشعراوي ج٢ ص ١٠٩٨.

(٢) رواه البخاري [٣٣٥٠] والمعني: أن الله يمسخ آزر على هيئة ضبع يتمرغ في نتنه.. وقيل الحكمة في مسخه لتنفر نفس إبراهيم منه ولئلا يبقي في النار علي صورته فيكون فيه غضاضة علي إبراهيم.

١ – الشفاعة العظمى أو العامة:

وهي من المكارم التي خص الله تعالى بها النبي ﷺ وهي تتعلق بالخلائق عمومًا -لا بالأمة المحمدية على وجه الخصوص.. هذه الشفاعة ثبت في السنة تفصيل القول فيها وفي المقدمات التي تسبقها.. حيث يلجأ العباد إلى عدد من الرسل عليهم الصلاة والسلام كي يكونوا شفعائهم عند الله من أجل فصل القضاء وإراحتهم من هول الموقف وشدائده المذهلة.. ولكن الرسل يعتذرون وتظل رغبة الفصل في القضاء بين الخلائق قائمة.. ويستجيب رسول الله علية الصلاة والسلام ويشفع ويشفّع ويتحقق- بإكرام الله المطلب العام الجلل وهذه الشفاعة هي المقام المحمود الذي وعده به ربه عز وجل ﴿ وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ نَافِلَةٗ لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا ﴾ [الإسراء ٧٩].

روى البخاري في صحيحه بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: أتي رسول الله ﷺ بلحم.. فرفع إليه الذراع وكانت تعجبه فنهس منها نهسة [أي أخذ منها قطعة بأطراف أسنانه] ثم قال: «**أنا سيد الناس يوم القيامة، وهل تدرون مم ذلك؟ يجمع اللّه الناس الأولين والآخرين في صعيد واحد، يسمعهم الداعي وينفذهم البصر، وتدنو الشمس، فيبلغ الناس من الغم والكرب ما لا يطيقون ولا يحتملون، فيقول الناس: ألا ترون ما قد بلغكم، ألا تنظرون من يشفع لكم إلى ربكم؟ فيقول بعض الناس لبعض: عليكم بآدم، فيأتون آدم عليه السلام فيقولون له: أنت أبو البشر، خلقك اللّه بيده، ونفخ فيك من روحه، وأمر الملائكة فسجدوا لك، اشفع لنا إلى ربك، ألا ترى إلى ما نحن فيه، ألا ترى إلى ما قد بلغنا؟ فيقول آدم: إن ربي قد غضب اليوم غضبًا لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، وإنه نهاني عن الشجرة فعصيته، نفسي نفسي نفسي، اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى نوح. فيأتون نوحًا فيقولون: يا نوح، إنك أنت أول الرسل**

إلى أهل الأرض، وقد سماك اللّه عبدًا شكورًا، اشفع لنا إلى ربك، ألا ترى إلى ما نحن فيه؟ فيقول: إن ربي عز وجل قد غضب اليوم غضبًا لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، وإنه قد كانت لي دعوة دعوتها على قومي، نفسي نفسي نفسي، اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى إبراهيم. فيأتون إبراهيم فيقولون: يا إبراهيم، أنت نبي اللّه وخليله من أهل الأرض، اشفع لنا إلى ربك، ألا ترى إلى ما نحن فيه؟ فيقول لهم: إن ربي قد غضب اليوم غضبًا لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، وإني قد كنت كذبت ثلاث كذبات -فذكرهن أبو حيان في الحديث- نفسي نفسي، اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى موسى. فيأتون موسى فيقولون: يا موسى، أنت رسول اللّه، فضلك اللّه برسالته وبكلامه على الناس، اشفع لنا إلى ربك، ألا ترى إلى ما نحن فيه؟ فيقول: إن ربي قد غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، وإني قد قتلت نفسا لم أومر بقتلها، نفسي نفسي، اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى عيسى. فيأتون عيسى فيقولون: يا عيسى، أنت رسول اللّه، وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، وكلمت الناس في المهد صبيا، اشفع لنا، ألا ترى إلى ما نحن فيه؟ فيقول عيسى: إن ربي قد غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله مثله قط، ولن يغضب بعده مثله - ولم يذكر ذنبا - نفسي نفسي، اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى محمد ﷺ. فيأتون محمدا ﷺ فيقولون: يا محمد أنت رسول اللّه، وخاتم الأنبياء، وقد غفر اللّه لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر، اشفع لنا إلى ربك، ألا ترى إلى ما نحن فيه؟ فأنطلق فآتي تحت العرش، فأقع ساجدا لربي عز وجل، ثم يفتح اللّه علي من محامده وحسن الثناء عليه شيئا لم يفتحه على أحد قبلي، ثم يقال: يا محمد ارفع رأسك، سل تعطه، واشفع تشفع، فأرفع رأسي

فأقول: أمتي يا رب، أمتي يا رب، فيقال: يا محمد أدخل من أمتك من لا حساب عليهم من الباب الأيمن من أبواب الجنة، وهم شركاء الناس فيما سوى ذلك من الأبواب، ثم قال: والذي نفسي بيده، إن ما بين المصراعين من مصاريع الجنة كما بين مكة وحمير، أو: كما بين مكة وبصرى»[1].

٢- الشفاعة في دخول الجنة:

عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**أَنَا أَوَّلُ شَفِيعٍ فِي الْجَنَّةِ**»[2].

عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال ﷺ: «**أنا أول الناسِ يشفعُ في الجنة وأنا أكثرُ الأنبياء تبعًا**»[3].

٣- شفاعة النبي ﷺ لعُصاة المؤمنين..

وهي شفاعته لنوع من العصاة من أمته قد استوجبوا دخول النار بذنوبهم فيشفع لهم في الخروج منها: روى البخاري عن عمران بن حصين عن النبي ﷺ قال: «**يخرج قوم من النار بشفاعة محمد ﷺ فيدخلون الجنة ويسمون الجهنميين**»[4].

٤ – شفاعة النبي ﷺ في عمه أبي طالب..

أن يخفف عنه الله من العذاب يوم القيامة وهذه خصوصية للرسول خصه الله تعالى بها وذلك لأن الأصل أن الكافر لا شفاعة له... عن العباس بن عبد المطلب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أنه قال للنبي ﷺ: ما أغنيت عن عمك فإنه كان يحوطك ويغضب لك؟ قال: «**هو في ضحضاح من نار ولولا أنا لكان في الدرك الأسفل من النار**»[5].

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري [٣١٦٢] ومسلم[١٩٤].

(٢) رواه أحمد.

(٣) رواه مسلم [١٩٦].

(٤) رواه البخاري[٦١٩١].

(٥) متفق عليه: رواه البخاري[٣٦٧٠] ومسلم [٢٠٩].

٥- شفاعة النبي ﷺ لقوم من أهل الجنة في زيادة ثوابهم ورفع درجاتهم..

قَالَ شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ: (.. وَكَذَلِكَ شَفَاعَتُهُ لِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِي زِيَادَةِ الثَّوَابِ وَرَفْعِ الدَّرَجَاتِ مُتَّفَقٌ عَلَيْهَا بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ وَقَدْ قِيلَ إنَّ بَعْضَ أَهْلِ الْبِدْعَةِ يُنْكِرُهَا)[1].

٦- شفاعة الأنبياء والملائكة والعلماء والشهداء..

روى الترمذي وغيره عن المِقْدَام بنِ مَعْدِ يكَرِبَ قال: قالَ رسولُ الله ﷺ: «**للشّهيدِ عندَ اللّه ستّ خِصَالٍ: يُغْفَرُ لَهُ في أوّلِ دُفْعَةٍ ويرَى مَقْعَدَهُ مِنَ الْجَنّةِ، ويُجَارُ مِنْ عَذَابِ القَبْرِ، وَيَأْمَنُ مِنَ الفَزَعِ الأكْبَرِ وَيُوضَعُ على رأْسِهِ تَاجُ الوَقَارِ، اليَاقُوتَةُ منها خَيْرٌ مِنَ الدّنْيَا وما فيها وَيُزَوّجُ اثْنَتَيْنِ وسَبْعِينَ زَوْجَةً مِنَ الْحُورِ الْعِينِ وَيُشَفّعُ في سَبْعِينَ مِنْ أقَارِبِهِ**»[2].

كما ورد في الحديث الصحيح أيضًا أن الصيام والقرآن يشفعان للعبد يوم القيامة قال ﷺ: «**الصيام والقرآن يشفعان للعبد يوم القيامة يقول الصيام أي ربي منعته الطعام والشراب طول النهار فشفعني فيه ويقول القرآن أي ربي منعته النوم طول الليل فشفعني فيه قال فيشفعان**»[3].

إخواني في الله...

إن الشفاعة لا تبطل قوانين العمل والجزاء فليس في الأمر ما يدعو إلى الغرور أو التهاون في ترك ما كلف الله به عباده.. فالأصل والقاعدة هي قانون الجزاء كما قال تعالى ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ [الزلزلة٧-٨]... وإنما [شفاعة الشافعين في يوم الحساب بعد أن تنصب

(١) مجموع الفتاوى [١/ ١٤٩]..
(٢) رواه الترمذي وقال حديث حسن صحيح.
(٣) رواه أحمد والطبراني وصححه الألباني في صحيح الجامع [٣٨٨٢].

الموازين وتنشر الدواوين وتكشف الأوراق وتقرأ الكتب أشبه بوضع [لجان الرأفة] في امتحانات الشهادات في الدنيا.. إن المقاييس التي وضعت للنجاح والرسوب محكّمة في الجميع ويحاسب كل ممتحن على الدرجة ونصف الدرجة ولكن هناك من تستحق ورقته أن تعرض على [لجنة الرأفة] حيث يكون قريبًا من النجاح وإن لم يستحقه بموجب العدل الصارم بل بموجب الرحمة.. فهذا يقرب لنا مبدأ الشفاعة فهي ليست لعتاة المجرمين وطغاة الظالمين.. فهؤلاء لا يقبل نبي ولا صدّيق أن يشفع لهم إنما يشفعون للمقاربين ممن ضعف عزمه وزلت قدمه ولم تسعفه التوبة)[1].

فياللعجب ممن يظن أن (شفاعة المصطفي ﷺ سينالها جميع المسلمين يوم القيامة مهما فعلوا من آثام أو حملوا من أوزار معتقدين أن الرسول الكريم صلوات الله وسلامه عليه سيشفع لهم يوم القيامة فلا يعذبون ولا يدخلون النار بجرمهم وذنوبهم.. ونسوا أن الإيمان ليس بالتمني ولا بالتحلي ولكن ما وقر في القلب وصدقه العمل.. وإن قومًا ألهتهم الأماني وخرجوا من الدنيا ولا حسنة لهم وقالوا نحسن الظن بالله، كذبوا ولو أحسنوا الظن لأحسنوا العمل ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٢٣﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾ [النساء ١٢٣- ١٢٤][2].

---

(١) الشفاعة في الآخرة بين النقل والعقل ص ٤١-٤٢.. د. يوسف القرضاوي.
(٢) منهج القرآن في عرض عقيدة الإسلام ص٤٥٠-٤٥١..جمعة أمين عبد العزيز.

[يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ]

يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ

[يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ]... (وفيها عدة أقوال:

- [ما بين أيديهم]= ما قبل خلقهم.. [وما خلفهم] = ما بعد موتهم
- وقيل [ما بين أيديهم] = ما أظهروه.. [وما خلفهم] = ما كتموه
- وقيل [ما بين أيديهم] = يعني الآخرة لأنهم يقدمون عليها.. [وما خلفهم]= الدنيا لأنهم يخلفونها وراء ظهورهم.
- وقيل المراد [بين أيديهم] المحسوسات المشاهدة [وما خلفهم] المعقولات الغيبية... وكل هذه الأقوال محتملة والمراد أنه سبحانه عالم بما كان قبلهم وبما كان بعدهم.. عالم بما خطر لهم وبما خفي عنهم.. عالم بما فعلوه وبما لا يفعلوه.. عالم بأمور الدنيا وأمور الآخرة.. عالم بالغيب والشهادة.. فسبحان من وسع كل شيء علمًا وأحاط بكل شيء قدرًا][1].

إن [الله تعالى عليم بكل شيء.. لم يسبق معرفته جهل.. ولا يعدو عليها نسيان.. ولا يمكن أن تخالف الواقع.. وعلمه محيط بالأمس والغد.. بالظاهر والباطن.. بالدنيا والآخرة.

قد يعرف الإنسان شيئا عن حاضره.. وقد يذكر طرفا من ماضيه.. وما وراء ذلك فهو بالنسبة إليه عماء.. بيد أن الإنسان لا يذكر من ماضيه الطويل إلا قليلا من الحوادث ولا يدري من تاريخ العالم الذي يعيش فيه شيئا طائلا.

لكن الله – وحده- يحصي أعمالنا الماضية ساعة ساعة ويسجل أحوال العالم الغابر

(١) المقصد الأسني في تفسير آية الكرسي.. ص ٣٢.. د. أحمد الشرقاوي.

دولة دولة وحادثة حادثة ﴿قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ ﴿٥١﴾ إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ ﴿٣٨﴾ أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِى ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ﴾ [طه ٥١-٥٢].

إنه علم يشرق على كل شيء فيجلي بواطنه وخوافيه ويكشف بداياته ونهاياته ويكتنه ذاته وصفاته.

فالشهود والغيب لديه سواء.. والقريب والبعيد والقاصي والداني..

والعلم الإلهي يشرف على كل شيء إشرافًا تامًا ويهيمن على أطوار الموجودات- ما يحس منها وما يتوهم- هيمنة كاملة)[١].

(ولكم أن تتخيلوا كم يحدث في الأرض من حَدَث في الدقيقة بل في الثانية الواحدة.. كم تسقط من أوراق وتنزل من أمطار ويموت من بشر ويولد من ولدان وتحمل من أرحام ويتحرك من حيوان ويطير من طير؟ بل حتى الهواءُ الذي يتنفسه الإنسان والحيوان والنبات والخطوات التي يمشونها والماء الذي يشربونه والطعام الذي يأكلونه كل ذلك لا يكون إلا بتقدير الله تعالى وعلمه وأمره!!.. ولوِ اجْتَمَعَ البَشَرُ كلُّهم بتقنياتهم وما أوتوا من علم على أن يحصوا أحداث الأرض في ثانية واحدة لما استطاعوا ذلك والله تعالى وحده يحصيها ويعلمها بل ويعلم ما يجري في سائر الكواكب والمجرات والأرض والسماوات ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا﴾ [الطَّلاق ١٢])[٢].

(فعدد ما في صحاري الأرض من رمال.. وعدد ما في بحار الدنيا من قطرات وعدد ما في الأشجار من ورقات.. وعدد ما في الأغصان من ثمار.. وما في السنابل من حبوب.. وما في رؤوس البشر وجلودهم من شعر.. ثم ما يمكن أن يطرأ على

---

(١) عقيدة المسلم ص ٨٩ بتصرف.. الشيخ محمد الغزالي.
(٢) محاضرة تأملات في آية الكرسي.. الشيخ إبراهيم الحقيل.

هذه الأعداد الكثيرة من أحوال شتى وما تحتاج إليه في وجودها من قوى متجددة وما يعتريها من أوصاف متغايرة.. ذلك كله يستوعبه شعاع واحد من أشعة العلم التي لا تدري عقولنا من كنهها قليلا ﴿وَأَسِرُّوا۟ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُوا۟ بِهِۦٓ ۖ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٣﴾ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الملك ١٣-١٤].. وهذا العلم من خصائص الذات المقدسة)[1].

أخي في الله...

إن التأمل في علم الله عزوجل الشامل الكامل المستقصي لكل ما حولنا (من شأنه أن يحدث في النفس رجة وهزة.. النفس التي تقف عارية في كل لحظة أمام بارئها الذي يعلم ما بين يديها وما خلفها.. يعلم ما تضمر علمه بما تجهر ويعلم ما تعلم علمه بما تجهل ويعلم ما يحيط بها من ماض وآت مما لا تعلمه هي ولا تدريه... شعور النفس بهذا خليق بأن يحدث فيها هزة الذي يقف عريانا بكل ما في سريرته أمام الديان كما أنه خليق بأن يسكب في القلب الاستسلام لمن يعرف ظاهر كل شيء وخافيه)[2].

(يا ترى ماذا سيكون قولنا أمام هذه العظمة والقدرة والعلم والإحاطة التي يتصف بها مولانا جل جلاله وتقدست أسماؤه؟!

هل يليق بنا أن يأتينا أمره فلا نطيع؟! ونعلم نهيه فلا نلتزم؟! نبصرُ آياته في الكون وفي أنفسنا ونشاهد إتقان صنعه في كل شيء وننظر في هذه الأرض العظيمة بجبالها وأنهارها وبحارها وجميع الأحياء عليها مما نعلمه وما لا نعلمه فنتعاظم ذلك ونعجب منه! أفلا يقودنا ذلك إلى تعظيم مقدّرها وخالقها وآمرها ومدبرها الذي خضع له كل شيء؟!

(١) عقيدة المسلم.. ص ٨٩.
(٢) في ظلال القرآن ج١ ص ٢٨٩.

لماذا لا تخشع منا القلوب ولماذا لا تدمع العيون تعظيمًا لله تعالى وإجلالاً؟

هل عَرَفْنا الله حقيقة المعرفة وقدرناه حق قدره.. من يعصي الله في خلواته؟ ويبطر بإنعامه عليه؟ انظروا كم ضيعنا من فرائض الله وحقوقه! وكم انتهكنا مِنْ محارم الله وحدوده! فهل حقُّ الخالقِ العظيم أن يقابل على إنعامه وإحسانه بالكفران)[1].

إن الآيات التي تتحدث عن علم الله تعالى وشموله وإحاطته كثيرة جدًا في كتاب الله تعالى.. آيات تأخذ بالألباب وتهز النفوس وتزرع العظمة والإجلال والمحبة والإكبار.. وهذه الآيات لها أهميتها ولها أثرها العميق لدى أولي الألباب وأود أن أقف معك أخي القاريء مع ثلاث آيات من كتاب الله تعالى لنتأملهم ونتدبرهم:

- **الآية الأولي:**

قوله عزوجل ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام ٥٩].

(هذه الآية العظيمة.. من أعظم الآيات تفصيلاً لعلمه المحيط وأنه شامل للغيوب كلها التي يطلع منها ما شاء من خلقه وكثير منها طَوَى علمه عن الملائكة المقربين والأنبياء المرسلين فضلاً عن غيرهم من العالمين وأنه يعلم ما في البراري والقفار من الحيوانات والأشجار والرمال والحصى والتراب وما في البحار من حيواناتها ومعادنها وصيدها وغير ذلك مما تحتويه أرجاؤها ويشتمل عليه ماؤها)[2].

الله أكبر.. ياللعظمة الإلهية.. (الورقة تسقط بعلمه.. الهمسة تنبس بعلمه الكلمة تقال بعلمه.. النية تعقد بعلمه.. القطرة تنزل بعلمه.. الخطوة تنقل بعلمه.. علمَ الحي والميت، والرطب واليابس، والحاضر والغائب، والسر والجهر، والبادي والخافي،

(١) محاضرة تأملات في آية الكرسي.
(٢) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان للسعدي ص ٢٥٩.

والكثير والقليل أحاط علمه المطلق بكل موجود، واطلاعه التام بكل مخلوق، فلا يند عن علمه شيء، ولا يعزب عن اطلاعه شيء، ولا يفوت عن إحاطته شيء، لا الغائب تستره غيبته عن علم الجليل، ولا الخافي يحجبه خفاؤه عن العظيم، ولا الصغير الحقير تخفيه دقته عن اطلاع اللطيف الخبير.. النجوى عنده جهر، والسر لديه علانية، والخافي لديه مكشوف.. ثم تأمل أخي الحبيب في قوله تعالى: ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا﴾.

(فإحاطة علمه تعالى لحركة الورقة الساقطة أُنموذجٌ لأحوال سائرها لأن الذي لا يغفل عن الورقة الميتة الساقطة لا شكَّ أن علمَه محيطٌ بغيرها من الأحوال والحركات ويمتدُّ علمُه تعالى من حركةِ الورقةِ الميتةِ الساقطةِ إلى حركة البزوغ والنَّماء لكل حبةٍ في بطن الأرض)[1].

• الآية الثانية:

قوله عزوجل ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ﴾ [سبأ ٢].

الله عزوجل يعلم كل ما يلج في الأرض ويدخل فيها من بذور وماء وثمار وكنوز ودفائن وأجسام، ويعلم كل ما يخرج منها من نبات وأشجار، وحيوان ومياه ومعادن وأحجار، ويعلم ما ينزل من السماء من مطر وثلوج وصواعق وأرزاق وما يعرج فيها ويصعد إليها من الملائكة وأعمال العباد... وهو مع ذلك كله الغفور الرحيم، لمن يفرط في واجب الشكر والثناء لصاحب هذه النعم.

وما أجمل ما قاله الأستاذ سيد قطب رحمه الله وهو يتفيأ ظلال هذه الآية:

(ويقف الإنسان أمام هذه الصفحة المعروضة في كلمات قليلة فإذا هو أمام حشد

(١) بصائر الحق في سورة الأنعام ص ٦٢ للشيخ عبد الحميد طهماز.

هائل عجيب من الأشياء والحركات والأحجام والأشكال والصور والمعاني والهيئات لا يصمد لها الخيال.. ولو أن أهل الأرض جميعا وقفوا حياتهم كلها يتتبعون ويحصون ما يقع في لحظة واحدة مما تشير إليه الآية لأعجزهم تتبعه وإحصاؤه عن يقين.. فكم من شيء في هذه اللحظة الواحدة يلج في الأرض؟ وكم من شيء في هذا اللحظة يخرج منها؟.. وكم من شيء في هذه اللحظة ينزل من السماء؟.. وكم من شيء في هذه اللحظة يعرج فيها؟.. كم من شيء يلج في الأرض؟.. كم من حبة تختبىء أوتخبأ في جنبات هذه الأرض؟ كم من دودة ومن حشرة ومن هامة ومن زاحفة تلج في الأرض في أقطارها المترامية؟.. كم من قطرة ماء ومن ذرة غاز ومن إشعاع كهرباء تندس في الأرض في أرجائها الفسيحة.. وكم وكم مما يلج في الأرض وعين الله عليه ساهرة لا تنام؟... وكم يخرج منها؟.. كم من نبتة تنبثق؟.. وكم من نبع يفور؟ وكم من بركان يتفجر؟ وكم من غاز يتصاعد؟.. وكم من مستور ينكشف؟ وكم من حشرة تخرج من بيتها المستور؟ وكم وكم مما يرى ومما لا يرى.. ومما يعلمه البشر ومما يجهلونه وهو كثير؟... وكم مما ينزل من السماء؟.. كم من نقطة مطر؟ وكم من شهاب ثاقب؟ وكم من شعاع محرق وكم من شعاع منير؟ وكم من قضاء نافذ ومن قدر مقدور؟ وكم من رحمة تشمل الوجود وتخص بعض العبيد وكم من رزق يبسطه الله لمن يشاء من عباده ويقدر.. وكم وكم مما لا يحصيه إلا الله.. وكم مما يعرج فيها؟ كم من نفس صاعد من نبات أو حيوان أو إنسان أو خلق آخر مما لا يعرفه الإنسان؟ وكم من دعوة إلى الله معلنة أو مستسرة لم يسمعها إلا الله في علاه؟

وكم من روح من أرواح الخلائق التي نعلمها أو نجهلها متوفاة وكم من ملك يعرج بأمر من روح الله وكم من روح يرف في هذا الملكوت لا يعلمه إلا الله ثم كم من قطرة بخار صاعدة من بحر ومن ذرة غاز صاعدة من جسم؟ وكم وكم مما لا يعلمه سواه؟.. كم في لحظة واحدة؟.. وأين يذهب علم البشر وإحصاؤهم لما في اللحظة الواحدة ولو قضوا الأعمار الطوال في العد والإحصاء وعلم الله الشامل

الهائل اللطيف العميق يحيط بهذا كله في كل مكان وفي كل زمان.. وكل قلب وما فيه من نوايا وخواطر وما له من حركات وسكنات تحت عين الله)[1].

• الآية الثالثة:

قوله عزوجل: ﴿ٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَىْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ﴾ [الرعد ٨].

يخبر الله تعالى في هذه الآية بعموم علمه وسعة اطلاعه وإحاطته بكل شيء.

وتأمل قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ﴾.

(هكذا على الإتساع.. اتساع الأرض التى نعيش عليها على الأقل..

﴿كُلُّ أُنثَىٰ﴾ فليعمل الخيال جاهدًا لإحصاء كل أنثى إذا استطاع.. إن (كل أنثى) لا تشمل إناث الإنسان وحده.. فالسياق أشمل.

إنما تشمل كما يحدد اللفظ بالضبط (كل أنثى).. إناث الإنسان.. وإناث الحيوان وإناث الطير وإناث الأسماك وإناث الحشرات.. وكل أنثى تخطر على البال.. فليجر الخيال لاهثًا لا لإحصاء كل أنثى فذلك «محال»!! بل لإحصاء الأجناس والأنواع فقط التى لها إناث.. وليتخيل هذه الإناث مجموعات مجموعاتٍ.. كل مجموعة تحمل اسم الجنس الذى تتبعه أوالنوع.. ثم ليركز الخيال على خط من اللوحة أدق.. على أرحام هذه الإناث.. لا على الإناث بكاملها.. ثم ليركز على خط أدق.. على ما تحمل هاتيك الأرحام وليجر لاهثًا مرة أخرى لا للإحصاء فذلك «محال»!!!.. بل لتصور تفصيلات ما تحمل كل أنثى في رحمها.. تفصيلات كل نوع على حدة.. هذه إناث تحمل أجنة أناسىَ.. وهذه إناث تحمل أجنة حيوان.. وهذه إناث تحمل أجنة طير.. وهذه.. وهذه.. وهذه.. ثم انتقل إلى خط أدق.. خذ عالم الأناسى وارقب

---

(١) في ظلال القرآن ج ٥ ص ٢٨٩١ -٢٨٩٢.

التفصيلات:

هذه أنثى تحمل ذكرًا.. وهذه تحمل أنثى..تتبع بخيالك هذه الجزئية وامض بها في أرجاء الأرض.. تعال إلى خط أدق.. هذه تحمل جنينًا أبيض اللون.. وهذه تحمل أصفر.. وهذه تحمل أسود..

تعال إلى خط أدق.. هذا الجنين كبير الحجم.. وهذا متوسط الحجم وهذا ضئيل الحجم..

تعال إلى خط أدق.. هذا جنين أزرق العينين.. وهذا عسلى.. وهذا أسود..

هل تعب خيالك؟.. لا.. انتظر إن التفصيلات ما زال فيها مزيد ..

تعال إلى خط أخفى!.. هذا جنين زكى.. وهذا متوسط الخيال.. وهذا بليد الذهن.. ولسنا نحن الذين نرى ذلك أو نعلمه الأن وهو جنين ولكننا نتحدث عن علم الله !

ونتابع بخيالنا قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تَحۡمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ﴾.

تعال إلى خط أكثر خفاء!.. هذا جنين كتب له في اللوح المحفوظ أنه طويل العمر.. وهذا ينقص العمر.. وهذا شقى.. وهذا سعيد..

هل ما يزال في خيالك بقية من قدرة يتتبع بها ذلك العالم الهائل المعجز الذى فتحته تلك الألفاظ الستة من الأية؟

فلتبق بقية تتبع بها بقية الأية ﴿وَمَا تَغِيضُ ٱلۡأَرۡحَامُ وَمَا تَزۡدَادُ﴾ كل رحم تنتفخ بالحمل.. وتغيض بالوضع.. كل رحم من ملايين الملايين من الأجناس والأنواع.. كلها.. كلها فى علم الله الشامل الذى لا يند عن علمه شيء.

هل أصابك الدوار وأنت تطلق خيالك هنا وهناك يتابع كل أنثى ويتابع حملها ويتابع نمو كل حمل ويتابع وضع كل حمل ويتابع كل رحم وهى تغيض؟

خذ هذه البقية الباقية من الأية قبل أن يكف خيالك عن المتابعة عجزًا ولهثًا وعجبًا

كذلك... ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ﴾..وعد من جديد [إلى من شيء].. لتتابعه مرة أخـــرى.. في مـجـــال أخر! وسواء كان المقدار أى القدر ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر ٤٩].

بمعنى أن هناك قدرًا خاصًا مفردًا لخلق كل شيء.. أو كانت بمعنى (أن لكل شيء من المخلوقات حجمًا معينًا موزونًا في تقدير الله).. سواءا كان هذا المعنى أو ذاك.. أو كلاهما معًا.. فليحاول الخيال أن يمضي يتابع كل شيء بقدره ومقداره.. حتى إذا ارتد عاجزًا عن متابعة شيء على الإطلاق فهناك علم الله الشامل الذى يشمل ما عجز الخيال عن تصوره.. مجرد تصوره.. ولا نقول عده وأحصاه!)[1].

الآثار الإيمانية والسلوكية لمعرفة العبد أن الله ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾.

١ـ الخوف من الله عز وجل وخشيته ومراقبته في السر والعلن..

لأن العبد إذا أيقن أن الله تعالى عالم بحاله مطلع على باطنه وظاهره.. فإن ذلك يدفعه إلى الاستقامة على أمر الله عز وجل ظاهرًا وباطنًا فتزكوا أعمال قلبه وجوارحه ويصل إلى مرتبة الإحسان الذي قال عنه النبي ﷺ: «**أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك**»[2].

فالمرء حينما يعلم سعة علم الله تعالى وإحاطته وشموله ومراقبته وأنه لا تخفى عليه خافية ولا تغيب عنه ذرة وأنه معه أينما كان.. يعلم خلجات الأنفس وخواطر القلوب وخائنة الأعين وما تخفي الصدور.. إذا تمثل المرء هذه الحقائق استقامت حياته وخشعت جوارحه وطابت أقواله وحسنت أعماله لأنه يعلم أن الله عزوجل هو القائل: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟ ثُمَّ

(١) دراسات قرآنية ص ١٦٦ – ١٦٨.
(٢) متفق عليه: رواه البخاري[٣٧] ومسلم [٨].

يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [المجادلة ٧].

(إن هذه حقيقة مؤنسة من جانب.. مذهلة مرهبة من جانب آخر.. مذهلة بروعة جلال الرب.. مؤنسة بظلال القربى وهي كفيلة حين يحسها القلب البشري على حقيقتها أن ترفعه وتطهره.. وتدعه مشغولاً بها عن كل أعراض الأرض وزينتها.. كما تدعه في حذر دائم وخشية دائمة مع الحياء والتحرج من كل دنس ومن كل جهالة ومن كل غفلة ﴿ إِن تُبْدُواْ شَيْـًٔا أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴾ [الأحزاب ٥٤].

فمتى تؤوب هذه الأنفس الشاردة إلى ربها؟ ومتى تفر إليه؟ ومتى تستحي منه ومتى توقره وتعظمه؟.. إنها تقف عارية في كل لحظة أمام بارئها الذي يعلم ما بين أيديها وما خلفها ويعلم سرها وجهرها ويعلم ما يحيط بها من ماض وآت مما لا تعلمه هي ولا تدريه... فما أجدر الإنسان الذي يقف عريانًا بكل ما في سريرته أمام الملك الديان ويتقلب في نعمه ليله ونهاره ويبارزه بالمعاصي في أرضه بلا حياء ولا خوف.. ما أجدره أن يتوب إلى ربه وما أحراه أن يستسلم لمن يعرف ظاهره وباطنه وسره وعلانيته)[(١)].

٢ـ التسليم والرضا بقدر الله..

فاليقين بعلم الله تعالى للأمور قبل وقوعها وكتابتها عنده سبحانه في اللوح المحفوظ قبل خلقها يثمر في قلب العبد السكون والطمأنينة إزاء ما يقضيه الله تعالى من الأحكام القدرية كالمصائب والمكروهات التي لم تحدث إلا بعلم الله تعالى وحكمته وأنها ليست عبثًا ولعبًا... فالمؤمن يعلم أنه ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِّكَيْلَا تَأْسَوْاْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُواْ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ

---

(١) موسوعة فقه القلوب ج١ ص ١٨٥-١٨٦.

فَخُورٍ ﴾ [الحديد ٢٢- ٢٣].

وهكذا (حين يستقر في تصوره وشعوره أنه هو والأحداث التي تمر به وتمر بغيره والأرض كلها.. ذرات في جسم كبير هو هذا الوجود.. وأن هذه الذرات كائنة في موضعها في التصميم الكامل الدقيق لازم بعضها لبعض وأن ذلك كله مقدر مرسوم معلوم في علم الله المكنون.. حين يستقر هذا في تصوره وشعوره فإنه يحس بالراحة والطمأنينة لمواقع القدر كلها على السواء فلا يأسى على فائت أسى يضعضعه ويزلزله ولا يفرح بحاصل فرحا يستخفه ويذهله ولكن يمضي مع قدر الله في طواعية وفي رضى.. رضى العارف المدرك أن ما هو كائن هو الذي ينبغي أن يكون)[1].

(وكل إنسان -في تجاربه الخاصة- يستطيع حين يتأمل أن يجد في حياته مكروهات كثيرة كان من ورائها الخير العميم ولذات كثيرة كان من ورائها الشر العظيم.. وكم من مطلوب كاد الإنسان يذهب نفسه حسرات على فوته ثم تبين له بعد فترة أنه كان إنقاذا من الله أن فوت عليه هذا المطلوب في حينه.. وكم من محنة تجرعها الإنسان لاهثا يكاد يتقطع لفظاعتها ثم ينظر بعد فترة فإذا هي تنشيء له في حياته من الخير ما لم ينشئه الرخاء الطويل.. إن الإنسان لا يعلم والله وحده يعلم.. فماذا على الإنسان لو يستسلم؟!)[2].

٣ ـ التسليم لأحكام الله الشرعية..

والرضى بها والفرح والاغتباط بها حيث إنها من لدن عليم حكيم.. عليم بما يصلح لعباده ويجلب لهم الخير والسعادة في الدارين فيأمرهم به.. وعليم بما يجلب لعباده الشر والشقاء في الدارين فينهاهم عنه، ويحذرهم منه فهو سبحانه أعلم

(١) في ظلال القرآن ج ٦ ص ٣٤٩٣.
(٢) في ظلال القرآن ج١ ص ٢٢٥.

بخلقه وما يصلح لهم من أنفسهم ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الملك ١٤].

٤ـ إن يقين العبد بعلم الله تعالى الشامل لكل شيء..

ومن ذلك علمه سبحانه بحال عبده المصاب وما يقاسيه من الآلام.. إن ذلك يثمر في القلب الرجاء والأنس بالله تعالى ويدفع اليأس والقنوط من القلب لأن العبد إذا أيقن أن ربه سبحانه يعلم حاله ولا تخفى منه خافية في ليل أو نهار في بر أو بحر أو سماء فإن ذلك يثمر في قلب المؤمن تعلقه بربه تعالى العالم بأحوال عباده فيتضرع بين يديه ويوجه شكواه إليه ويلقي بحاجته عند بابه فإذا وافق هذا الانطراح والانكسار حسن ظن بالله تعالى وقوة اضطرار لم تتخلف الإجابة وجاءه الفرج من ربه العليم الحكيم البر الرحيم)[1].

---

(١) ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها ص ٣٤٥- ٣٤٦.

وَلاَ يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَاء

وفي مقابل علم الله العظيم فإنه أخبر عن خلقه فقال ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ﴾.. ولنا هنا وقفات:

• هذه الجملة بيان لنقصان علم المخلوق بجوار علم الخالق وذلك من ناحيتين:

أولاهما: أن أحدًا من البشر لا يستطيع أن يعلم كل شيء بل إن ما يجهل أضعاف كثيرة مما يعلم كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء ٨٥].

الثانية: أن الجزء الذى يعلمه البشر من الأشياء علمه فيه ناقص كل النقص وهذا ما قرره سبحانه فى قوله تعالى ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ﴾ أى أنهم لايعلمون شيئًا واحدًا علم إحاطة واستغراق لكل ما يشتمل عليه وعلم الإحاطة هو العلم الكامل.. ولقد فسره الأصفهانى بقوله [الإحاطة بالشيء علمًا هى أن تعلم وجوده وجنسه وكيفيته وغرضه المقصود به وبإيجاده وما يكون به ومنه وذلك ليس إلا لله تعالى).. وعلم الإنسان لا يكون إلا بالقدر الذى يشاؤه الله سبحانه وتعالى ولذلك كان الاستثناء فى قوله سبحانه ﴿إِلَّا بِمَا شَآءَ﴾ إذ إنه إذا كان علم الإحاطة الكامل لشيء لا يمكن أن يكون إلا لله العليم الخبير.. فالله سبحانه يعطى البشر من العلم ببعض الأشياء بالقدر الذى يريده سبحانه ويقدره وقد خلق البشر على استعداد له[1].

• المقصود من قوله تعالى [من علمه] كما ذكر المفسرون معنيين:

١ . العلم.. بمعني علم ذات الله وصفاته.

٢ . العلم.. بمعني المعلوم [علم الأشياء].

(إن الله سبحانه وهب الإنسان المعرفة مذ أراد إسناد الخلافة في الأرض إليه ووعده

---

(١) زهرة التفاسير ج ٢ ص ٩٣٩.

أن يريه آياته في الآفاق وفي الأنفس ووعده الحق وصدقه وعده فكشف له يوما بعد يوم وجيلا بعد جيل في خط يكاد يكون صاعدا أبدا عن بعض القوى والطاقات والقوانين الكونية التي تلزم له في خلافة الأرض ليصل بها إلى أقصى الكمال المقدر له في هذه الرحلة المرسومة.. وبقدر ما أذن الله للإنسان في علم هذا الجانب وكشف له عنه بقدر ما زوى عنه أسرارا أخرى لا حاجة له بها في الخلافة.. زوى عنه سر الحياة وما يزال هذا السر خافيا وما يزال عصيا وما يزال البحث فيه خبطا في التيه بلا دليل.. وزوى عنه سر اللحظة القادمة فهي غيب لا سبيل إليه والستر المسدل دونها كثيف لا تجدي محاولة الإنسان في رفعه وأحيانا تومض من وراء الستر ومضة لقلب مفرد بإذن من الله خاص ثم يسدل الستر ويسود السكون ويقف الإنسان عند حده لا يتعداه.. وزوى عنه أسرارا كثيرة.. زوى عنــه كل ما لا يتعلق بالخلافة في الأرض.. والأرض هي تلك الذرة الصغيرة السابحة في الفضاء كالهباءة.. ومع ذلك يفتن الإنسان بذلك الطرف من العلم الذي أحاط به بعد الإذن.. يفتن فيحسب نفسه في الأرض إلها ويكفر فينكر أن لهذا الكون إلها وإن يكن هذا القرن العشرون قد بدأ يرد العلماء حقا إلى التواضع والتطامن فقد بدأوا يعلمون أنهم لم يؤتوا من العلم إلا قليــلاً! وبقي الجهال المتعالمون الذين يحسبون أنهم قد علموا شيئًا كثيرًا)[1].

إن هذا العلم الذي يعلمه الإنسان المحدود من علوم الدين والدنيا إنما هو من تعليم الله تعالى له واختصاصه له بالعقل وقابليته التعلم وإلا فالإنسان كما قال عنه خالقه عز وجل: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَـٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل ٧٨].

وهذا العلم الذي عند الإنسان مهما كثر وتفرع فإنه لا يساوي شيئًا البتة عند علم

(١) في ظلال القرآن ج ١ ص ٢٨٩.

الله تعالى.. وما أحسن ما وصف به الخضر علم الإنسان بالنسبة إلى علم خالقه عز وجل حينما قال لموسى عليه السلام وهو يرى طائرًا ينقر في البحر ليأخذ من مائه فقال: (يا موسى إن معك علم لم يعلمنيه الله تعالى ومعي علم لم يعلمكه الله عز وجل.. يا موسى ما نقص علمي وعلمك من علم الله إلا مثل ما نقص هذا العصفور بمنقاره من البحر)[1].

وصدق الله العظيم إذا يقول: ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا﴾ [الكهف ١٠٩].

• تأمل في التعبير القرآني [يحيطون].. ففيه إشارة لطيفة (لأنك قد تدرك معلوما من جهة وتجهله من جهات فأوضح سبحانه أنك لا تقدر أن تحيط بعلم الله أو قدرته.. لأن معنى الإحاطة أنك تعرف كل شيء مثل المحيط على الدائرة.. لكن ذلك لا يمنع أن نعلم جزئية ما ونحن نعلم بما آتانا الله من قوانين الاستنباط.. فهناك مقدمات نستنبط منها نتائج وقول الله [إِلاَّ بِمَا شَآءَ] هو إذن منه سبحانه بأنه سيتفضل على خلقه بأن يشاء لهم أن يعلموا شيئا من معلومه وكان هذا المعلوم خفيا عنهم ومستورا في أسرار الكون ثم يأذن الله للسر أن ينكشف.. وكل شيء اكتشفه العقل البشري كان مطمورا في علم الغيب وكان سرًا من أسرار الله وبعد ذلك أذن الله للسر أن ينكشف فعرفناه بمشيئته سبحانه فكل سر في الكون له ميلاد كالإنسان تماما أي أن له ميعادًا يظهر فيه وهذا الميعاد يسمى مولد السر.. لقد كان هذا السر موجودا وكان العالم يستفيد منه وإن لم يعلمه.. لقد كنا نحن نستفيد ـ على سبيل المثال ـ من قانون الجاذبية ولم نكن نعلم قانون الجاذبية.. وكذلك النسبية كنا نستفيد منها ولم نكن نعلمها وهذا ما يبينه لنا الحق في قوله ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾ [فصلت ٥٣].. ما دام قال سبحانه

(١) متفق عليه: رواه البخاري[٣٤٠١] ومسلم [٢٣٨٠].

﴿ سَنُرِيهِمۡ ﴾ فهذا يعني أنه سبحانه سيولد لنا أسرارًا جديدة وهذا الميلاد ليس إيجادًا وإنما هو إظهار)[1].

• أشار القرآن الكريم إلى عدة شواهد تدل على نقص علم الخلق بالنسبة لعلم الخالق.. نكتفي منها بشاهدين[2]:

١. عدم معرفة الملائكة أسماء الأشياء المعروضة عليهم:

قال تعالى: ﴿وَإِذۡ قَالَ رَبُّكَ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ خَلِيفَةٗۖ قَالُوٓاْ أَتَجۡعَلُ فِيهَا مَن يُفۡسِدُ فِيهَا وَيَسۡفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحۡنُ نُسَبِّحُ بِحَمۡدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ٣٠ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلۡأَسۡمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمۡ عَلَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِي بِأَسۡمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ٣١ قَالُواْ سُبۡحَٰنَكَ لَا عِلۡمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمۡتَنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ ٣٢ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئۡهُم بِأَسۡمَآئِهِمۡۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسۡمَآئِهِمۡ قَالَ أَلَمۡ أَقُل لَّكُمۡ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ غَيۡبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَأَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ وَمَا كُنتُمۡ تَكۡتُمُونَ﴾ [البقرة ٣٠ -٣٣].. وهكذا دل جواب الملائكة على أن علمهم من الله.. وأنهم لا يعلمون علمًا ذاتيًا مباشرًا.. ولذلك لا يعلمون الأشياء التي لم يعلمهم الله إياها.

٢. عدم معرفة الجن موت سليمان عليه السلام:

قال تعالى: ﴿قَضَيۡنَا عَلَيۡهِ ٱلۡمَوۡتَ مَا دَلَّهُمۡ عَلَىٰ مَوۡتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلۡأَرۡضِ تَأۡكُلُ مِنسَأَتَهُۥۖ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلۡجِنُّ أَن لَّوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ٱلۡغَيۡبَ مَا لَبِثُواْ فِي ٱلۡعَذَابِ ٱلۡمُهِينِ﴾ [سبأ ١٤].

وهكذا أظهرت الآيات عجز الجن وقصور علمهم أمام علم الخالق سبحانه.

(١) تفسير الشعراوي ج ٢ ص ١١٠٠.
(٢) ومنها أيضا: اقدام إبراهيم علي ذبح ابنه عليهما السلام من غير علمه بالنتيجة مسبقا[الصافات ١٠٢-١١١] - عدم معرفة يعقوب مكان وجود ابنه المفقود يوسف عليهما السلام وحاله - عدم معرفة سليمان عايه السلام سبب غياب الهدهد [النمل ٢٠ -٢٨].. راجع [شرح آية الكرسي فضائلها وخواصها للشيخ أحمد الطهطاوي].

[وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ]

وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ

(إن المتبادر إلى الأذهان أن السماوات والأرض هما حدود المُلك الإلهي.. وهذا خطأ.. فإنهما بعض آثار الملك الإلهي فحسب.. هما من آيات الله.. وآيات الله الشاهدة بجلاله لا يحاط بها.. وكرسيه من الرحابة بحيث يسع السماوات والأرض وسائر ما لا نحصي من آيات.. ونحن لا ندري ما الكرسي؟

وكل ما ندركه من هذه الجملة هو ما توحي به من الإشراف الإلهي العالي على سائر الخلق ما نري منه وما لا نري.. وأن السماوات والأرض ما يستغرقان إلا جزءا من الملكوت الواسع الذي اشتمل عليه هذا الكرسي)[1].

إن هذه (الجملة دالة على عظمة الله تعالى ومقامه وجلاله وهي تقرير لما سبق من كمال ألوهيته وحياته وقيوميته وملكه وعلمه.. وتعليل لما يأتي بعدها من كمال قدرته وحفظه للخلق... وذلك أنه إذا كان سبحانه وجل في علاه هو الإله الحق وهو الحي القائم بشأن الخلق وهو مالك السموات والأرض وقد أحاط علمه بالمخلوقات كلها.. فيتقرر من ذلك أن له المقام الأعلى والقدر الأعظم ذاتًا ومكانًا.. ولا يمكن لأحد أن يكون له ملك السموات والأرض وهو القائم بشأنها كلها وهو المحيط بعلمها إلا وهو العظيم في ذاته وقدره وعلوه وسلطانه.. وإذا كان كذلك فهو محيط بهم قدرةً وحفظًا ولهذا قال بعده ﴿وَلاَ يَؤُودُهُ حِفْظُهُمَا﴾ ولا شك أن بيان مقام كرسيه الذي وسع السموات والأرض أدل على كمال عظمته تعالى من حيث أنه تعالى لا حد لمقامه وعظمته.. بل إنه تعالى أعظم من كل عظيم وأكبر من كل كبير..

(١) الجانب العاطفي من الإسلام ص ٢٨.. الشيخ محمد الغزالي.

جل وعلا في ملكوته فكان بيان مقام كرسيه أدل على المقصود)[1].

والكرسي مخلوق عظيم بين يدي العرش وهو أعظم من السموات والأرض وهو بالنسبة للعرش كأصغر شئ.. فعن أبي ذر الغفاري أنه سأل النبي ﷺ عن الكرسي فقال رسول الله ﷺ: «**ياأبا ذر ما السموات السبع والأرضين السبع عند الكرسي إلا كحلقة ملقاة بأرض فلاة**»[2].

أخي في الله...

إذا كان هذه حالة الكرسي أنه يسع السماوات والأرض على عظمتهما وعظمة من فيهما.. والكرسي ليس أكبر مخلوقات الله تعالى بل هنا ما هو أعظم منه وهو العرش وما لا يعلمه إلا هو.. فكيف بعظمة خالقها ومبدعها والذي أودع فيها من الحكم والأسرار ما أودع؟

وأود أن أقف معك أخي القاريء لنتأمل سويا طرفًا من آيات الله تعالى الباهرات في الكون [السماوات والأرض] استجابة لقوله تعالى: ﴿ قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ﴾ [يونس ١٠١] لعلنا ندرك جزءًا يسيرًا من عظمة الله عزوجل.

انظر إلى (هذه الأرض الفسيحة وقد سُقيت ورويت بماء الحياة فتغلغل إلى أعماقها فاكتظّت أعاليها بالنعم الوافرة من أنهار جارية وأشجار مثمرة وزروع نضرة وجبال شامخة راسية وبحار واسعة مترامية.. رفّت في جوانبها الطيور المغرّدة.. وداعب النسيم ما عليها من زينة الأشجار المحننة فبدت كأنها عروس تختال في حللها.

وتأمّل في مطلع الشمس ومغيبها.. تأمّل في الظلّ الممدود ينقص بلطف ويزيد تأمل في الخضمّ الزاخر والعين الفوّارة والنبع الرويّ.

تأمّل في النبتة النامية والبرعم الناعم والزهرة المتفتّحة والحصيد الهشيم.

---

(١) قوة الإيمان وترسيخه في ضوء آية الكرسي.. د. محمد بن عبد الله الربيعة.

(٢) رواه البيهقي وابن حبان في صحيحه.

تأمّل في الطائر السابح في الفضاء والسمك السابح في الماء والدود السارب والنمل الدائب... تأمل في صبح أو مساء في هدأة الليل أو في حركة النهار..

إن التأمل في كل ذلك يحرّك القلبَ لهذا الخلق العجيب.. ويشعر العبدَ بعظمة الخالق تبارك وتعالى.

هذه الأحياء المبثوثة في كل مكان فوق سطح الأرض وفي تضاعيفها..

وفي أعماق البحر وفي أجواء الفضاء..

أسراب من الطير لا يعلم عددها إلا الله.. وأسراب من النحل والنمل وأخواتها لا يحصيها إلا الله.. وأسراب من الحشرات والهوام والجراثيم لا يعلم مواطنها إلا الله.. وأسراب من الأسماك وحيوان البحر لا يطلع عليها إلا الله.. وقطعان من الأنعام والوحش سائمة وشاردة في كل مكان.. وقطعان من البشر مبثوثة في الأرض في كل مكان.. ومعها خلائق أربى عددًا وأخفى مكانًا في السماوات من خلق الله.. كلها يجمعها الله حين يشاء لا يضل منها فرد واحد ولا يغيب)[1].

وبعد هذه الرحلة السريعة في جنبات الكون.. نعود لنذكّر أن الكرسي وسع السموات والأرض.. والكرسي بالنسبة للعرش كحلقة ملقاة في أرض فلاة وفضل العرش على الكرسي كفضل الفلاة على الحلقة.. والسموات السبع والأرضون السبع وما بينهن وما فيهن في الكرسي كحلقة ملقاة بأرض فلاة.

وحملة العرش ملائكة عظام لا يعلم عظم خلقهم إلا الله.. ولا يعلم قوتهم إلا الله ولا يعلم عددهم إلا الله.. يحملون العرش بقدرة الله..

والله تبارك وتعالى فوق سماواته مستو على عرشه عال على خلقه لا يخفى عليه شيء من أمرهم... وإذا كانت هذه عظمة كرسيه.. فكم تكون عظمة عرشه الذي وصفه

(١) خطبة آيات الله في الكون.. الشيخ عبد الباري الثبيتي.

بأنه عظيم ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ [النمل ٢٦].

وكم تكون عظمة الرب الذي استوى عليه جلَّ جلاله؟

عظمة الله أعظم مما نتصور ومما يخطر في أذهاننا... الله جل جلاله له العظمة الكاملة التي لا تخطر على بال.

فواعجباه...

كيف يطغي الإنسان ويستكبر عن عبادة الله وطاعته؟

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ﴾ [الإنفطار ٦-٧].

عجبًا لك أيها الإنسان.. الكون كله ينقاد لمولاه.. ويتصل بخالقه اتصال الطاعة والاستسلام لكلمته ومشيئته ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴾ [فصلت ١١]... فما بالك بالإنسان هذا الضعيف الذليل يتكبر ويتبجح ويقارع جبار السماوات والأرض بالمعاصي والآثام.

أما علمت أن قوتك لا تساوي ذرة بالنسبة لقوة المخلوقات التي خلقها الله كالسموات والارض والجبال ﴿ لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [غافر٥٧].. وقوة المخلوقات كلها لا تساوي ذرة بالنسبة لقوة الله.. وقوة الناس وقوة المخلوقات كلها بيد الله وفي قبضة الله ألا ما أجهل الإنسانَ بعظمة ربه ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [الزمر٦٧].

إنه الله..

إنه الله العظيم (يطوي الله عزوجل السموات يوم القيامة ثم يأخذهن بيده اليمني ثم يقول أنا الملك أين الجبارون؟ أين المتكبرون؟ ثم يطوي الأرضين بشماله ويقول

أنا الملك أين الجبارون؟ أين المتكبرون؟)[1].

فما لكم لا تملئون القلوب بمحبته؟!.. ما لكم لا تملئون النفوس بعظمته؟!..

مالكم لا تملئون الأرواح بهيبته وخشيته؟!

ما لكم أيها الناس كأنكم سكارى ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾ [نوح ١٣].

والخلاصة أن لله سبحانه وتعالى كرسيًا وعلينا أن نؤمن بوجوده وإن كنا لا ندرك كنهه ولا نعرف حقيقته إذ ليس ذلك فى مقدور العقل البشري[2].

---

(١) صحيح مسلم [٢٧٨٨].

(٢) أورد بعض أهل العلم والمفسرين أن الكرسى فى الآية كناية عن عظم سلطانه تعالي ونفوذ قدرته وواسع علمه وكمال إحاطته.. والذي أراه – وهذا ما عليه جمهور السلف – أننا يجب أن نؤمن بوجود الكرسي بدون تأويل أو تشبيه أو تكييف فالله عزوجل [[illegible]] [الشوري ١١].

وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفۡظُهُمَا

بعد أن بين الله تعالى عظم وسعة ملكه.. بين أن ذلك لا يثقله ولا يشق عليه أن يحفظه وأن يعلمه وأن يتصرف فيه كما يشاء سبحانه وتعالي...

[إن ذلك النص الكريم يدل على أن كل شيء فى الكون فى حفظ الله وحياطته فالسماء بأفلاكها وطبقاتها وكواكبها وكل ما فيها يسير على نظام محكم محفوظ بعناية بديع السموات والأرض.. والأرض وما عليها ومن عليها ومافيها ظاهرا وباطنا كل ذلك فى حفظ الله خاضع لقوانينه التى سنها فى خلقه ولا شيء يكون فيها أو منها إلا بإرادته سبحانه ﴿وَكُلُّ شَيۡءٍ عِندَهُۥ بِمِقۡدَارٍ ۝٨ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلۡكَبِيرُ ٱلۡمُتَعَالِ﴾ [الرعد ٨ -٩][1].

[ونظرة إلى السماوات والأرض وإلى هذه الأجرام التي لا تحصى منتشرة في ذلك الفضاء الذي لا تعلم له حدود وكلها قائمة في مواضعها تدور في أفلاكها محافظة على مداراتها لا تختل ولا تخرج عنها ولا تبطئ أو تسرع في دورتها وكلها لا تقوم على عمد ولا تستند على شيء من هنا أو من هناك.. نظرة إلى تلك الخلائق الهائلة العجيبة جديرة بأن تفتح البصيرة على اليد الخفية القاهرة القادرة التي تمسك بهذه الخلائق وتحفظها أن تزول)[2].

إنه الحق وحده سبحانه وتعالى الذي يحفظ السماوات والأرض في توازن عجيب ومذهل.. ولئن قُدِّرَ لهما أن تزولا فلن يحفظهما أحد بعد الله.. أي لا يستطيع أحد إمساكهما.. فهما قائمتان بقدرة الواحد القهار وإذا أراد الله أن تزولا فلا يستطيع أحدٌ أن يمسكهما ويمنعهما من الزوال ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمۡسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ أَن تَزُولَا

---

(١) زهرة التفاسير ج٢ ص ٩٨١.
(٢) في ظلال القرآن ج ٥ ص ٢٩٤٨.

﴿وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [فاطر ٤١].

[وَلا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا].. قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى [أي: لا يثقله حفظ السماوات والأرض ومن فيهما ومن بينهما بل ذلك سهل عليه يسير لديه وهو القائم على كل نفس بما كسبت الرقيب على جميع الأشياء فلا يَعْزُبُ عنه شيء ولا يغيب عنه شيء والأشياء كلها حقيرة بين يديه متواضعة ذليلة صغيرة بالنسبة إليه محتاجة فقيرة وهو الغني الحميد الفعال لما يريد الذي لا يسأل عما يفعل وهم يسألون وهو القاهر لكل شيء الحسيب على كل شيء الرقيب العلي العظيم لا إله غيره ولا ربَّ سواه).

وأود أن أقف معك أخي القاريء في جولة سريعة في السماوات والأرض لنري يد القدرة الإلهية وهي تحفظ السماوات والأرض ومن فيهما..

ولنبدأ بالسماء هذه القبة الزرقاء المحيطة بالكون من جميع الجهات من الذي بناها هذا البناء؟.. ما هذه القوة العظيمة التي نظَّمتها هذا التنظيم؟

ما الذي يحملها وأنت ترى أنه لا يمسكها عمد ولا جدار؟

وهل يستطيع أحد أن يتصوَّر سعة هذه السماء؟ أم تراه عاجزًا عن أن يدرك لها نهاية أو حدًّا؟. فانظر أيها الإنسان إلى السماء متأمِّلاً مفكِّرًا ﴿ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ﴾ [الملك ٤].

من الذي زيَّنها بالكواكب تلمع فيها ليلاً؟..

من الذي يمسك نجومها في هذا الفضاء الواسع وكم من نجم أكبر من الأرض بملايين المرات؟..

من الذي يسيِّر هذه الكواكب جميعها فلا يصدم كوكب كوكبًا ولا يخرج نجم عن مجراه قيد أُنملة؟ ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّـٰهَا لِلنَّـٰظِرِينَ﴾ [الحجر١٦].

إنها عظمة الله عزوجل.. تلك العظمة التي لا تتناهى... فما خلْق هذه النجوم كلها

وإمدادها وتسييرها وتدبير شؤونها إلا بأمر واحد منه تعالى وبكلمة [كنْ] وذلك لفظ يقرِّب لك الحقيقة التي هي أعظم من أن يدركها إدراك أويصل إلى كنهها عقل أي مخلوق من المخلوقات.

ثم انظر إلى الشمس وما في أشعتها من خاصِّيات يستعين بها الحيوان والإنسان والنبات على الحياة.. الشمس في موضعها في الفضاء وبُعدها المناسب عن الأرض وعلاقتها البنَّاءة بها وتوليدها بذلك الربيع والصيف والخريف والشتاء وأنه لولا الشمس لما نبَتَ نبتٌ ولا حُصد زرع ولا نضجت ثمار ولما عاش إنسان ولا حيوان ولولا الشمس لما تبخَّر ماء البحر ولما هبَّت الرياح ولما تكوَّنت الغيوم ونزلت الثلوج والأمطار ولولا الشمس لما تكوَّنت الفصول ولا تشكَّل الليل والنهار.

فانظر أيها الإنسان إلى الشمس في خلقها وتكوينها فمن أين هي تستمد حرارتها وضياءها؟. ومن أين تُوقد هذه الشمس؟. وما الذي يجري فيها فإذا هي تشع لك هذا الشعاع وتمدُّك بهذه الحرارة والضياء.

ثم انظر إلى تنظيم حرارتها واستمرار هذا التنظيم فهي دومًا ثابتة الاشعاع ضمن نظامها الدوري السنوي الفصلي وحلولها في الأبراج فلا تعتريها زيادة ولا نقصان ضمن تنظيمها هذا ولو أنها زادت حرارتها أو نقصت عن ذلك لاختل نظام الأرض ولما أمكنت الحياة.

انظر أيها الإنسان إلى هذا البعد المناسب الكائن بين الشمس والأرض فلو أن الشمس كانت أقرب من الأرض ميلاً واحدًا وذلك بخروجها عن مدارها لأحرقت بحرِّها ما في الأرض من حيوان وإنسان ونبات ولو أنها كانت أبعد ميلاً أيضًا عن سماء أو سقف مدارها هذا أثناء دورتها السنوية على الأبراج وحول الأرض لكان وجه الأرض متجمِّدًا لا تُمكن عليه الحياة.. فمن الذي وضعها في موضعها المناسب وجعلها على هذا الحال؟.. انظر إلى هذه الجاذبية وذلك الارتباط بين الشمس والأرض ولولا ذلك لما كان هذا الدوران ولما أمكنت الحياة ولما شاهدت هذه

الفصول ولا الليل والنهار ولما آتت الأرض أُكلَها من مختلف النبات والأثمار.

ألا يليق بك أن تفكر بذلك كله ثم تسائل نفسك من الذي خلق هذه الشمس وأوجدها؟. من الذي قرنها بالأرض وربطهما معًا في سيرهما؟.. من الذي يمد الشمس بتلك الحرارة والضياء دومًا؟.. من الذي جعلها على هذا البعد المناسب من الأرض؟.. أليس ذلك المبدع بخبير حكيم؟.. أليس ذلك الرب الممد الذي يمدُّها برب عظيم؟.. ألا تدل هذه الشمس على الله العليم القدير؟.

وإذا انتقلنا إلى القمر تلك (الكتلة العظيمة السابحة في الفضاء كيف هي تسبح وما الذي يمسكها أن تسقط أوأن يصيبها في جريها خلل أواضطراب.. من الذي جعله يدور حول الأرض مرتبطًا بها لا يفارقها متنقلاً في منازله واحدًا فواحدًا آخذًا بالنماء لحظة فلحظة يومًا فيومًا.. يولد أول ما يولد هلالاً ضئيلاً مقوَّسًا فإذا انتصف الشهر وأصبح بدرًا كاملاً عاد سيرته الأولى حتى ينمحق ويختفي فلا يعود يظهر ويُرى؟.. من الذي جعله يسير هذا السير المنظَّم فلا يستقدم في سيره ولا يستأخر لحظة ولا يخرج عن مداره المخصص به أنملة؟ فإذا ما تمَّ دورته عاد وليدًا وبدأ شهرًا جديدًا فعرَّفنا عدد السنين والحساب.. أليس في القمر ولن نحصي ما في القمر من آيات دالّة على خالقه العظيم، الذي أوجده على هذا الحال من الإتقان والدقة والكمال؟.

﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾

[يس ٣٨-٤٠].

ثم ننتقل إلى الأرض فنقول لو أن دوران الأرض حول نفسها كان سريعًا جدًا بصورة يتجدد معها الليل ساعة بعد ساعة لما كفتنا ساعة نوم كما لم تكفنا ساعة العمل.. ولو كان دورانها بطيئًا بصورة يستمر معها الليل خمسة أيام ثم يأتينا من

بعده النهار فيدوم خمسة أيام أيضًا لو كان ذلك لمللنا النوم والراحة في ليلنا كما مللنا العمل وأدركنا التعب في نهارنا وإذًا فدوران الأرض جاء منظَّمًا والذي خلق الليل والنهار هو الذي سوّى ذلك النظام فجاء كاملاً مناسبًا.

أليس هناك من قدرة حكيمة وقوة عظيمة مسيِّرة؟..

أليس ذلك هو الله ربُّ العالمين؟..

أليس هذا النظام القائم بهادٍ إليه تعالى ودالٍّ على جلاله وعظمته ورحمته بالخلق أجمعين؟

فانظر أيها الإنسان إلى الجبال من الذي وضع فيها ما وضع من أتربة ورمال وأحجار؟.. من الذي جمع كتلتها بعضها إلى بعض فإذا هي متماسكة الأجزاء والذرات!.. من الذي رفعها عن سطح الأرض فإذا هي عالية ذاهبة في الفضاء؟ من الذي أرساها في الأرض ووضعها هذا الوضع الثابت فلا تتحرك ولا تضطرب ولا يؤثِّر عليها سير الأرض ولا دورانها؟.. أفلا تفكِّر في الجبال وعظَمتها وشموخها وتُعظِّم خالقها الذي أوجدها على هذا الحال ومنحها هذه العظَمة.

﴿وَٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ٣٠ أَخۡرَجَ مِنۡهَا مَآءَهَا وَمَرۡعَىٰهَا ٣١ وَٱلۡجِبَالَ أَرۡسَىٰهَا ٣٢ مَتَٰعٗا لَّكُمۡ وَلِأَنۡعَٰمِكُمۡ﴾ [النازعات ٣٠ -٣٣].

وهكذا فكل ما في الكون جاء كاملاً تامًّا خاليًا من النقص وإنك إذا ذهبت تفكِّر في الكون: أرضه وسمائه، شمسه وقمره، جباله وأنهاره، بحاره وبحيراته حيوانه ونباته، وحوشه وحشراته رأيت كل ما فيه كاملاً.. ومهما أرجعت البصر ودقَّقت لِتَجِدَ نقصًا انقلب إليك البصر خاسئًا حسيرًا.

أخي في الله...

قل لي بربك

ماذا لو اختلّ نظام هذا الكون قيدَ شعرة؟!

ماذا لو تصادمت أفلاكه؟!

ماذا لو تناثر ما في الفضاء من أجرامه؟!

ماذا لو حجِبت عنه عناية الله طرفةَ عين أو أقل من ذلك أوأ كثر؟!

إننا سنهلك ويهلك كل من معنا..

﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿٦٢﴾ لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [الزمر ٦٢-٦٣].

وهو العلي العظيم

العلي[1]

(هو الذي له العلو المطلق من جميع الوجوه: علو الذات.. وعلو القدر والصفات.. وعلو القهر... فهو الذي على العرش استوى وعلى الملك احتوى وبجميع صفات العظمة والكبرياء والجلال والجمال وغاية الكمال اتصف وإليه فيها المنتهى)[2].

وقد جاءت النصوص بإثبات أنواع العلو لله وهي:

١ـ علو الذات..

فالله تبارك وتعالى مستو على عرشه.. وعرشه فوق مخلوقاته.. كما قال تعالى ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [يونس ٣]... وقال تعالى ﴿ٱلرَّحْمَـٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه ٥].

والله مستو على عرشه فوق عباده ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾ [الأنعام ١٨].

وكل ما ورد في القرآن والسنة النبوية في بيان علوه جل شأنه فإننا نؤمن به ونقر به كما جاء بدون تشبيه ولا تعطيل ولا تكييف..

فالاستواء معلوم والكيف مجهول والسؤال عنه بدعة والايمان به واجب وحق..

٢ـ علو القهر والغلب..

كما قال تعالى: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾ [الزمر ٤] فلا ينازعه منازع ولا يغلبه غالب وكل مخلوقاته تحت قهره وسلطانه.. ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن.. فهو الذي الذى قهر المخلوقات ودانت له الموجودات وخضعت له الصعاب وذلت له

---

(١) ورد إسم الله العلي في القرآن الكريم في ثمانية مواضع: البقرة٢٥٥- النساء٣٤ - الحج٦٢ - لقمان٣٠ - سبأ٢٣ - غافر١٢ - الشوري ٤، ٥١.

(٢) تفسير السعدي ج ٥ ص٤٨٧.

الرقاب.

٣ـ علو المكانة والقدر والصفات..

لذى أطلق عليه القرآن: ﴿ٱلۡمَثَلُ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾ كما في قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡمَثَلُ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾ [النحل ٦٠]... وقوله: ﴿وَلَهُ ٱلۡمَثَلُ ٱلۡأَعۡلَىٰ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ [الروم ٢٧].

فالمثل الأعلى: الصفات العليا التي لا يستحقها غيره.. فالله هو الإله الواحد الأحد وهو متعال عن الشريك والمثيل والند والنظير ﴿قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمۡ يَلِدۡ وَلَمۡ يُولَدۡ ﴿٣﴾ وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدُۢ﴾ [الإخلاص ١ - ٤].

وله المثل الأعلى في كل شيء.. في الخلق والأمر.. وفي الجلال والجمال والعلو والكمال.. والعظمة والكبرياء.. والتصريف والتدبير.. والسموات والأرض.

ومن معاني العلي أيضا:

• (هو الذي يعلو أن يحيط به وصف الواصفين وعلم العارفين.. فتعالى الله علوًا كبيرًا في ذاته وصفاته وأفعاله إذ لم يجعل للخلق سبيلاً لإدراك أوصافه العلية ولا أفعاله المبنية على العلم المحيط والحكمة البالغة والإرادة النافذة والقدرة المنفذة... فسبحان من لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وتبارك الله في ملكه وتعالى على عرشه خضعت الجن والإنس لجبروته وسبح كل شيء بحمده وهو القاهر فوق عباده لا راد لقضائه ولا معقب لحكمه.

• وهو المتعالي عن الأنداد والأضداد ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾ [الشورى١١].. فلا يدانيه أحد مهما علت رتبته فهو الذي يمنع عباده ما شاء من فضله ويضع من شاء في أي رتبة شاء.. وهو ولي النعم كلها.. تعالى بفضله

ورحمته عن الوجود كله)[1].

الآثار الإيمانية والسلوكية لإسم الله [العلي]:

١- الخضوع لله تعالى والإخبات والتذلل له مع محبته وتعظيمه وإجلاله وهذان هما ركنا العبودية لله تعالى إذ إن حقيقة العبودية لله تعالى إنما تنشأ من غاية الحب لله تعالى مع غاية التذلل له... فالإيمان بعلو الله عز وجل ذاتًا وقدرًا وقهرًا يورث في النفس خضوعًا وإخباتًا لمن هذه صفاته... لذا قرن الله عزوجل بين الأمر بالتسبيح وبين علوه فقال ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾... وهنا (يأمر تعالى بتسبيحه المتضمن لذكره وعبادته والخضوع لجلاله والاستكانة لعظمته وأن يكون تسبيحا يليق بعظمة الله تعالى بأن تذكر أسماؤه الحسنى العالية على كل اسم بمعناها العظيم الجليل وتذكر أفعاله التي منها أنه خلق المخلوقات فسواها أي أتقن وأحسن خلقها)[2].

٢- (التواضع لله تعالى ولما أنزل من الحق لأن الإيمان بعلوه سبحانه وقهره لعباده يورث في القلب تواضعًا وحياءً وتعظيمًا لله تعالى وأوامره ونواهيه ورضًا بأحكامه القدرية والشرعية وإذعانه للحق إذا بان له وعلم أنه من عند الله تعالى وتقدس ولا يرد أحد الحق ويؤثر الباطل عليه إلا حين يغفل عن آثار أسماء الله عز وجل الحسنى ومنها الأسماء التي فيها إثبات العلو والعظمة والملك والحكمة لله تعالى)[3].

٣- الحذر من العلو في الأرض بغير الحق وتجنب ظلم العباد والتكبر عليهم وقهرهم والعدوان عليهم وذلك بتذكر علو الله تعالى وقهره.. فهو سبحانه (المتفرد بالعلو المتفرد بالعظمة وما يتطاول أحد من العبيد إلى هذا المقام إلا ويرده الله إلى الخفض والهون وإلى العذاب في الآخرة والهوان... يعلو الإنسان ما يعلو ويعظم الإنسان

---

(١) أسماء الله الحسنى آثارها وأسرارها ص ١٥٠ -١٥١.
(٢) تفسير السعدي ١/ ٩٢٠.
(٣) ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها ص ٢٥٩-٢٦٠.

ما يعظم فلا يتجاوز مقام العبودية لله العلي العظيم وعندما تستقر هذه الحقيقة في نفس الإنسان فإنها تثوب به إلى مقام العبودية وتطامن من كبريائه وطغيانه وترده إلى مخافة الله ومهابته وإلى الشعور بجلاله وعظمته وإلى الأدب في حقه والتحرج من الاستكبار على عباده.. فهي اعتقاد وتصور وهي كذلك عمل وسلوك)[1].

٤- أن يكون ذكرك له وعبادتك إياه على قدر علوه وعظمته وأن يعلو قدره في قلبك على قدر استحقاقه وتجعل حبه أعلى هم عندك وأسمى همة لديك.

(اعلم أن الله تعالى خلق في صدرك بيتا وهو القلب ووضع في صدره عرشا لمعرفته يستوي عليه المثل الأعلى، فهو مستو على عرشه بذاته بائن من خلقه، والمثل الأعلى من معرفته ومحبته وتوحيده مستو على سرير القلب.

فيبقى قلب العبد الذي هذا شأنه عرشًا للمثل الأعلى أي عرشًا لمعرفة محبوبه ومحبته وعظمته وجلاله وكبريائه، وناهيك بقلب هذا شأنه.. فيا له من قلب من ربه ما أدناه ومن قربه ما أحظاه فهو ينزه قلبه أن يساكن سواه أو يطمئن بغيره، فهؤلاء قلوبهم قد قطعت الأكوان وسجدت تحت العرش وأبدانهم في فرشهم، فإذا استيقظ هذا القلب من منامه صعد إلى الله بهمه وحبه وأشواقه مشتاقًا إليه طالبًا له محتاجًا إليه عاكفًا عليه، فحاله كحال المحب الذي غاب عن محبوبه الذي لا غنى له عنه ولا بد له منه، وضرورته إليه أعظم من ضرورته إلى النفس والطعام والشراب، فإذا نام غاب عنه فإذا استيقظ عاد إلى الحنين إليه وإلى الشوق الشديد والحب المقلق فحبيبه آخر خطراته عند منامه وأولها عند استيقاظه)[2].

٥- تنزيهه سبحانه وتعالى عن كل نقص في ذاته وصفاته وأفعاله وإثبات صفات الكمال له سبحانه وحمده على ذلك ﴿قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْاْ إِلَىٰ ذِى

(١) في ظلال القرآن ج١ ص ٢٩٠.
(٢) الفوائد الإمام بن القيم.

﴿ٱلۡعَرۡشِ سَبِيلٗا ٤٢ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوّٗا كَبِيرٗا﴾ [الإسراء ٤٢- ٤٣].

العظيم[1]

• العظيم...

ذو العظمة والهيبة والجلال والكمال وهو الكبير المتعال لا يعجزه شيء ولا يحيط العقل بكنه ذاته و لا صفاته.. لا شيء أعظم منه (فهو عظيم في كل شيء.. عظيم في ذاته وفي أسمائه وصفاته.. عظيم في رحمته.. عظيم في قدرته.. عظيم في حكمته.. عظيم في جبروته وكبريائه عظيم في هبته وعطائه.. عظيم في لطفه وخبرته.. عظيم في بره وإحسانه.. عظيم في عزته وعدله وحمده.. فهو العظيم المطلق.. فلا أحد يساويه ولا عظيم يدانيه)[2].

• العظيم..

له كل وصف ومعنى يوجب التعظيم فلا يقدر مخلوق أن يثني عليه كما ينبغي له ولا يحصي ثناء عليه بل هو كما أثنى على نفسه وفوق ما يثني عليه عباده... فهو القائل في الحديث القدسي: «**العز إزاري والكبرياء ردائي فمن نازعني عذبته**»[3].

• العظيم..

ليس لعظمته بداية ولا نهاية.. على مستوى البشر يقولون لك: فلان هذا كان لا يملك شيئًا.. الآن عظيم بماله وقد كان فقيرًا.. معنى هذا أنّ العظمة البشرية لها بداية.. فلان ملك.. لقد كان جنديًا في بداية أمره مثلاً فلان دكتور من أساطين العلم كان جاهلاً من قبل ذلك.. فلهذه العظمة بداية إذا قلت: إنَّ الله عظيم.. فليس

---

(١) ورد اسم الله العظيم في القرآن الكريم في ستة مواضع: البقرة ٢٥٥- الشوري٤ - الواقعة ٩٦،٧٤ - الحاقة ٥٢،٣٣.. كما ورد في ثلاث مواضع مقرونا بالعرش: التوبة ١٢٩ - المؤمنون ٨٦ - النمل ٢٦.

(٢) أسماء الله الحسني الهادية إلي الله والمعرفة به ص ١٤٦.

(٣) صحيح مسلم [٢٦٢٠].

لعظمته بداية ولا لجلاله نهاية.. فهو (العظيم في إلوهيته.. تعبد الخلق جميعًا طوعًا وكرهًا ودانوا لعظمته وكبريائه وخضعوا لقهره وجبروته فلا يملكون لأنفسهم نفعًا ولا ضرًا ولا موتًا ولا حياة ولا نشورًا.. ولا حول لهم مع حوله ولا قوة لهم مع قوته ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبۡعُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [الإسراء ٤٤].

فهو العظيم في رحمانيته يتجلى على عباده بواسع رحمته ويعمهم بعظيم فضله وإحسانه ويكون أرحم بهم من أنفسهم على أنفسهم.. وآية العظمة في رحمانيته أنه يرزق من عصاه ويتجاوز عن كثير وكثير من ذنوبه وهفواته ويؤخر عقوبته على بعض ذنوبه لا على جميعها إلى يوم لا تجزى نفس عن نفس شيئًا.. ولولا رحمته بعباده لأهلكهم جميعًا بذنوبهم وهو الغني عنهم لا تنفعه طاعتهم ولا تضره معصيتهم ﴿وَلَوۡ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُواْ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهۡرِهَا مِن دَآبَّةٖ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمًّىۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرَۢا﴾ [فاطر ٤٥].

وهو عظيم في ملكه يدبر الأمر فيه تدبيرًا دقيقًا محكمًا لا تناقض فيه ولا اختلاف حسب علمه المحيط بما كان وما يكون وما هو كائن ووفق إرادته التي لا ترد وبقدرته التي لا تحد بحد.. فالملك كله بيده ليس فيه عوج ولا تفاوت ولا أدنى خلل قائم عليه بذاته ليس مع إله غيره وليس لأحد فيه ذرة ولا أدنى منها.

وهو العظيم الذي ذلت لعظمته جميع الكائنات وتلاشت أمامها عظمة العظماء من الإنس والجن فكانوا ولا يزالون في أتم الافتقار إليه جل شأنه وكان هو في أتم الغنى عنهم ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ ١٥ إِن يَشَأۡ يُذۡهِبۡكُمۡ وَيَأۡتِ بِخَلۡقٖ جَدِيدٖ ١٦ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٖ﴾ [فاطر ١٥-١٧].

وهو العظيم في حكمه بين عباده فقد تنزه عن الظلم بكافة صوره تنزيهًا تامًا وجعله بين عباده محرمًا فلا يعاقب إلا بذنب ولا يؤاخذ الناس بذنوبهم إلا بعد أن

يقيم عليهم الحجة ويعطيهم المهلة الكافية للتوبة والاعتذار.

وهو العظيم في لطفه بعباده في جميع أحوالهم يقدر لهم الخير حيث كان ويغيثهم برحمته كلما لجأوا بأكف الضراعة وخالص الدعاء ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِى وَلْيُؤْمِنُواْ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ [البقرة ١٨٦].

وهكذا نري عظمة الله تبارك وتعالى ماثلة في جميع أسمائه الحسني وأوصافه العلي.. فهو صاحب العظمة التامة في كل شيء وأسماؤه الحسنى شاهدة على ذلك وقد جمعت آية الكرسي مظاهر العظمة كلها.. ولهذا ختمت بهذا الاسم للدلالة على أنه فلك تدور حوله وتنطلق منه وتنتهي إليه جميع الأسماء والصفات والأفعال الربانية)[1].

الآثار الإيمانية والسلوكية لاسم الله [العظيم]:

١ـ الخشوع والخضوع لله تعالى..

والاستكانة والتذلل لعظمته وجبروته ومحبته وإفراده وحده بالعبادة.. ولذا شرعت الصلاة التي كلها (أركانها وواجباتها وأذكارها) فيها التعظيم لله تعالى والخضوع لعظمته وإفراده وحده بالعبادة.. فنحن ننحني إجلالاً له في كل ركعة نركعها ونردد في إخبات وخشوع وتذلل وخضوع: (سبحان ربي العظيم).

وكلما أكثر العبد من التأمل في عظمة الله سبحانه حصل له في قلبه نوع تعظيم من الذل لله واحتقار النفس ومعرفة قدرها وأنه من الشرف العظيم والكبير أن جعلك الله عبدًا له سبحانه..

فما أجمل أن يعيش الإنسان في وجل ورجاء وإجلالٍ له سبحانه وتعالى.. تالله لو علم العباد ما لله من العظمة ما عصوه.. ولو علم المحبون ما لله من الجلال والكمال

(١) أسماء الله الحسني آثارها وأسرارها ص ١٣٢ -١٣٤.

ما أحبُوا غيره.. ولو عرِف الفقراء عظمة غنى الربِ سبحانه ما رجوا سواه.

٢ـ تعظيم أمره سبحانه..

ونهيه وتعظيم نصوص الكتاب والسنة والاستسلام لها وعدم التقدم بين يدي الله تعالى ورسوله برأي أو اجتهاد ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ﴾ [الحجرات ١].

والمراد بالتقدم هو خضوع الإنسان لهواه أو لفكره الشخصي أولمزاجه الذاتي بعيدًا عن خط الإيمان الذي يوحي به الله أو يلهم به رسوله في الحكم الذي يشرّعه أو في النهج الذي يقرّره أو في الخط الذي يخططه.. ما يوحي بأن من الواجب على المؤمن أن يبقى مشدودًا إلى أوامر الله ونواهيه وإلى شرع الرسول ونهجه في ما ينفتح عليه من قضايا السلوك والحياة.. فلا يسبق بكلامه كلام الله وبسلوكه شرع رسول الله ليكون الخاضع لله ولرسوله في كل شيء.

٣ـ تعظيم شعائر الله وحرماته..

﴿ذَٰلِكَۖ وَمَن يُعَظِّمۡ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقۡوَى ٱلۡقُلُوبِ﴾ [الحج ٣٢].

ومن تعظيم حرمات تعالى أن يعظم العبد حدود الله تعالى في نفسه فلا ينتهك حدًّا من حدود الله ولا يقع فيما حرم الله تعالى ولا يقصر في شيء مما أوجبه الله تعالى عليه بل تجده مسابقًا لطاعة الله تعالى عاملاً بما يرضيه سبحانه وتعالى مجتنبًا كل ما نهى الله عنه ورسوله.

٤ـ تعظيم كتاب الله..

للقرآن في نفس المؤمن مكانة ليست لأي كتاب آخر على الإطلاق.. فالقرآن هو كلام الله المنزل على رسول الله ﷺ المتعبد بتلاوته وكفى بذلك تعظيمًا في نفوس المؤمنين.

فالمؤمن يعظم ربه ابتداء فيعظم بالتالي كل شيء يأتيه من عند ربه فكيف بكلام الله

المنزل الموجه إليه ليهديه سواء السبيل وينير قلبه وطريقه ويهديه خير الدنيا وخير الآخرة؟

إن الكتاب الذي يصلني من مؤلف قدير في مادته يكون عزيزًا عندي بمقدار ما أعرف عن ذلك المؤلف من مكانة في العلم. فكيف بكتاب رب العالمين القادر المقتدر العليم الحكيم؟[1]

(إن تعظيم كلام الله تعالى ليس بتجويد قراءته فقط وإقامة حروفه وليس بتزيينه وتفخيم طباعته وكتابته وليس بتعليقه على جدران البيوت وليس بجعله افتتاحًا واختتامًا للمؤتمرات والمنتديات وليس بقراءته على الأموات بل بإقامة حروفه وحدوده والاحتكام إليه والعمل به وتعظيم شأنه والسير على منهاجه)[2].

(١) ركائز الإيمان ص ٢٠٤.

(٢) الله أهل الثناء والمجد.. ص٤٣٨.

الفصل الثاني

واسجد واقترب

مالي وما للأغنياء وأنت يا ... ربي الغني ولا يحد غناكا

مالي وما للأقوياء وأنت يا ... ربي عظيم الشأن ما أقواكا

إني أويت لكل مأوى في الحياة ... فما رأيت أعز من مأواكا

وتلمست نفسي السبيل إلى النجاة ... فلم تجد منجى سوى منجاكا

وبحثت عن سر السعادة جاهدًا ... فوجدت هذا السر في تقواكا

فليرضى عني الناس أو فليسخطوا ... أنا لم أعد أسعى لغير رضاكا

[الشاعر إبراهيم بديوي]

طُفنا -عبر الصفحات السابقة- في رحاب آية الكرسي في سياحة إيمانية على مرابع الأنس وساحات الجلال وعَرّجنا على حدائق الثناء ورتعنا في رياض التسبيح والتهليل... ويبقي السؤال...

* هل عرَفْتَ الله؟ فإذا قُلْتَ عرَفْتُهُ فماذا فَعَلْتَ من أجْلِهِ؟..

* هل والَيْتَ فيهِ ولِيًا؟ وهل عادَيْتَ فيهِ عدُواً؟..

* هل أَعْطَيْتَ لله؟ وهلْ منَعْتَ لله؟..

* هل غضِبْت لله؟ وهل رضيتَ لله؟..

* هل تحَرَّكْت لله ووقَفْتَ له؟.. هل تَكَلَّمْت لله؟ وهل سكَتَّ لله؟

* هل أصبح حبه سبحانه وتعالى أحب إليك من كل شيء؟.. والعمل على رضاه هو شغلك الشاغل.. فتحرص على القيام بكل ما يرضيه والإبتعاد عن كل ما يبغضه؟

* هل عرفته بآلائه؟... هل ذكرته بأوصافه وأسمائه؟...هل شكرته على نعمائه؟.. هل حمدته على حسن بلائه؟

إخواني في الله..

ما أردت من هذا الكتاب أن يكون الغاية منه مجرد تفسير لآية الكرسي.. فإذا ما انتهيت من قراءته أغلقت الكتاب وانتهي الأمر.. ولكني أردت أن يكون التدبر والتفكر في آية الكرسي وسيله إلى معرفة الله عزوجل بجلاله وعظمته وكبريائه وسلطانه ومن ثم الخُضوع والإستسلام والإنقياد التام والمطلق له.. ومحبته سبحانه وتعالى والإنس به والشوق إلى لقائه..

فيا سعادة من وصل إلى ساحل بـحر معرفته.. ورأى عظمة ذاته وأسمائه وصفاته.. وأبصر جماله وجلاله وكماله.. وشاهد آلاءه وإحسانه وأفعاله فمجَّده بلسانه.. وعظَّمه في قلبه.. وشكره بجوارحه.. وتلذَّذ بعبادته وطاعته.

إن لذة الحياة وروعة الأنس وراحة النفس هي في عبودية الإنسان لربه.

وللعبودية ركنان أساسان: كمال الذل والخضوع مع كمال المحبة لله تعالى.

وسأتحدث معك بمشيئة الله -أخي القاريء- عن هذين الركنين:

* كمال الذل والخضوع:

إن شعور الإنسان بفقره إلى المولي عزوجل وانطراحه على عتبة السجود لله جل جلاله أقصى درجات العبودية وأجّل مظاهر التذلل وأصدق دلائل الإذعان

(إن السجود بمفهومه العام يعني خضوع الإنسان لربه ونبذ من عداه.. والإنكباب بين يديه وحده.. فمنه يأخذ منهجه ويستمد قيمه.. ثم ينطلق في محراب الحياة ساجدا خاشعا لله جل جلاله.. لا يرفع وجهه إلى غير الله.. ولا ينصرف قلبه عن الله.. وبذلك يتفق مع نواميس الكون ومع الفطرة البشرية.. فكل ذرات الكون ساجدة لله جل جلاله ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيْءٍ يَتَفَيَّؤُاْ ظِلَٰلُهُۥ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَٰخِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ [النحل ٤٨-٤٩])[١].

وهكذا فالخضوع لله والاستسلام له والتذلل بين يديه والافتقار إليه هو حقيقة العبودية.. لذا كان (السجود لله أعظم هيئات العبودية وأقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد.. لأن السجود إذعان بالعبودية واعتراف بالألوهية وخضوع تام للمهيمن ومنابذة للشيطان وتحرر من الهوى وانطلاق من قيود الدنيا وعتق من عبودية الطاغوت.. والسجود لله هيئة خاشعة تثير في النفس حديثًا لا ينتهي من المحبة للجليل والتمسكن للأحد الصمد والاستسلام للملك السلام ﴿فَٱسْجُدُواْ لِلَّهِ وَٱعْبُدُواْ﴾)[٢].

---

(١) كيف يبرمج القرآن الحياة.. عبد المجيد الغيلي ص ٤١.

(٢) العظمة ص ٢٤٦.

وهذا ما توصل إليه ابن عطاء الله رحمه الله فصاغها لك في حكمة رائعة:

(تحقق بأوصافك يمدك بأوصافه.. تحقق بذلِّك يمدك بعزه.. تحقق بفقرك يمدك بغناه.. تحقق بضعفك يمدك بحوله وقوته).

لله در ابن عطاء الله... (ما أعظم أن يكون الضعيف مرتبطًا بالله القوي! ما أعظم أن يكون العبد العاجز مرتبطًا بالله سبحانه وتعالى الذي لا منتهى لكماله!.. ما أعظم أن يخضع الفقير المعدم للغني القاهر سبحانه وتعالى! إنه حينئذً يتحول إلى صورةً أخرى وإلى معنىً آخر في هذه الحياة.. إنه يرتبط حينئذٍ بالسماء.. يرتبط بنور الوحي.. يرتبط بنفخة الله عز وجل التي نفخها في خلقة آدم أول ما خلق عندما جعل خلقه قبضة من طين ونفخةً من روح.. عندما أراد الله عز وجل أن يجعل لهذه الروح غذاءها المرتبط بخالقها سبحانه وتعالى)[1].

أخي في الله...

(لا تتنكر لهويتك.. قدم نفسك إلى الله على أساسها، وقف على بابه مسترحمًا.

تقرب إليه بذُلّك الذي أنت مصدره يمدك بعزه الذي هو مصدره.. تقرب إليه بعجزك الذي هو شأنك يمدك بقوته التي هي من وصفه وشأنه.. تقرب إليه بضعفك الذي منه خُلقت وإليه تعود.. يمدك بحوله الذي قام به ملكوت السماوات والأرض)[2].

ألم تسمع قوله تعالى: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ ﴾ [فاطر ١٠].

(إن العزة كلها لله وليس شيء منها عند أحد سواه.. فمن كان يريد العزة فليطلبها من مصدرها الذي ليس لها مصدر غيره.. ليطلبها عند الله فهو واجدها هناك وليس

---

(١) من مقال لذة المناجاة وحلاوة العبادة.. د. علي بن عمر باحدح.

(٢) الحكم العطائية شرح وتحليل ج ٣ ص٤١٩.. د. محمد البوطي.

بواجدها عند أحد ولا في أي كنف ولا بأي سبب ﴿فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾.. والعزة الصحيحة حقيقة تستقر في القلب قبل أن يكون لها مظهر في دنيا الناس حقيقة تستقر في القلب فيستعلي بها على كل أسباب الذلة والانحناء لغير الله حقيقة يستعلي بها على نفسه أول ما يستعلي.. يستعلي بها على شهواته المذلة ورغائبه القاهرة ومخاوفه ومطامعه من الناس وغير الناس.. ومتى استعلى على هذه فلن يملك أحد وسيلة لإذلاله وإخضاعه... فإنما تذل الناس شهواتهم ورغباتهم.. ومخاوفهم ومطامعهم.. ومن استعلى عليها فقد استعلى على كل وضع وعلى كل شيء وعلى كل إنسان.. وهذه هي العزة الحقيقية ذات القوة والاستعلاء والسلطان!.. إن العزة ليست عنادًا جامحًا يستكبر على الحق ويتشامخ بالباطل وليست طغيانًا فاجرًا يضرب في عتو وتجبر وإصرار وليست اندفاعًا باغيًا يخضع للنزوة ويذل للشهوة وليست قوة عمياء تبطش بلا حق ولا عدل ولا صلاح.. كلا! إنما العزة استعلاء على شهوة النفس واستعلاء على القيد والذل واستعلاء على الخضوع الخانع لغير الله ثم هي خضوع لله وخشوع وخشية لله وتقوى ومراقبة لله في السراء والضراء.. ومن هذا الخضوع لله ترتفع الجباه.. ومن هذه الخشية لله تصمد لكل ما يأباه.. ومن هذه المراقبة لله لا تعنى إلا برضاه)[1].

فواحسرتاه...

• كم من بشر تخدعهم قوة الحكم والسلطان فيحسبونها القوة القادرة التي تعمل في هذه الأرض فيتوجهون إليها بمخاوفهم ورغائبهم ويخشونها ويفزعون منها ويترضونها ليكفوا عن أنفسهم أذاها أو يضمنوا لأنفسهم حماها!

• كم من بشر تخدعهم قوة المال يحسبونها القوة المسيطرة على أقدار الناس وأقدار الحياة ويتقدمون إليها في رغب وفي رهب ويسعون للحصول عليها ليستطيلوا بها

(١) في ظلال القرآن ج ٥ ص ٢٩٣٠-٢٩٣١ بإختصار.

ويتسلطوا على الرقاب كما يحسبون!

• كم من بشر تخدعهم قوة العلم يحسبونها أصل القوة وأصل المال وأصل سائر القوى التي يصول بها من يملكها ويجول ويتقدمون إليها خاشعين كأنهم عباد في المحاريب!

• كم من بشر ينسون أن قوة الله وحدها هي القوة وولاية الله وحدها هي الولاية وما عداها فهو واهن ضئيل هزيل كخيوط العنكبوت ﴿وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت٤١].

أخي في الله...

خبرني بربك.. كيف كان حال فرعون الذي اعتز بملكه وسلطانه واغتر بقوته وجبروته ﴿فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [القصص٤٠].

ما الذي حل بقارون الذي غره غناه الواسع.. وسلطانه الباذخ.. هل حصنته عزته وقوته؟!.. كلا ﴿فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ﴾ [القصص٨١].

* كمال المحبة:

إن محبة الله عز وجل والإنس به نعيم النفوس وحياة الأرواح.. ونور العقول.. وعمارة الباطن.. فليس عند القلوب السليمة والأرواح الطيبة والعقول الذكية أحلى ولا ألذ ولا أطيب ولا أسر ولا أنعم من محبته.. والحلاوة التي يجدها المؤمن في قلبه بذلك فوق كل حلاوة.. والنعيم الذي يحصل له أتم من كل نعيم.. واللذة التي تناله أعلى من كل لذة.. وهي (المنزلة التي فيها تنافس المتنافسون وإليها شخص العامون وإلى عَلَمها شمّر السابقون وعليها تفانى المحبون وبِرَوح نسيمها تروح العابدون.. فهي قوت القلوب وغذاء الأرواح وقرة العيون.. وهي الحياة التي من

حُرمها فهو في جملة الأموات.. والنور الذي من فقده فهو في بحار الظلمات والشفاءُ الذي من عدمه حلّت بقلبه جميع الأسقام.. واللذة التي من لم يظفر بها فعيشه كله هموم وآلام.. تالله لقد ذهب أهلها بشرف الدنيا والآخرة؛ إذ لهم من معرفة محبوبهم أوفر نصيب)[1].

ومحبة الله عزوجل يجب أن تتقدم على محبة النفس والأهل والولد والدنيا جميعًا.. فلا يذوق طعم الإيمان إلا من أحب الله عز وجل الحب كله وأحب فيه وأبغض فيه وهذا معنى قوله ﷺ: «**ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان: أن يكون اللّه ورسوله أحب إليه مما سواهما.. وأن يحب المرء لا يحبه إلا للّه.. وأن يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يقذف في النار**»[2].

وهذ هو حال عباد الرحمن كما وصفهم الشيخ السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى: (وعباد الرحمن يألهونه ويعبدونه ويبذلون له مقدورهم بالتأله القلبي والروحي والقولي والفعلي بحسب مقاماتهم ومراتبهم.. فيعرفون من نعوته وأوصافه ما تتسع قواهم لمعرفته.. ويحبونه من كل قلوبهم محبةً تتضاءل جميعُ المحابِّ لها فلا يعارض هذه المحبة في قلوبهم محبة الأولاد والوالدين وجميع محبوبات النفوس.. بل خواصهم جعلوا كل محبوبات النفوس الدينية والدنيوية تبعًا لهذه المحبة.. فلما تمَّت محبة الله في قلوبهم أحبوا ما أحبه من أشخاص وأعمال وأزمنة وأمكنة.. فصارت محبتهم وكراهتهم تبعًا لإلههم وسيدهم ومحبوبه.. ولما تمَّت محبة الله في قلوبهم التي هي أصل التأله والتعبد أنابوا إليه فطلبوا قُربه ورضوانه وتوسَّلوا إلى ذلك وإلى ثوابه بالجد والاجتهاد في فعل ما أمر الله به ورسوله وفي ترك جميع ما نهى الله عنه ورسوله.. وبهذا صاروا محبِّين محبوبين له وبذلك تحققت عبوديتهم وألوهيتهم لربهم وبذلك

---

(١) مدارج السالكين ج ٣ ص ٦.
(٢) متفق عليه: البخاري [١٦] – مسلم [٤٣].

استحقوا أن يكونوا عباده حقًا وأن يضيفهم إليه بوصف الرحمة حيث قال ﴿وعباد الرحمن] ثم ذكر أوصافهم الجميلة التي إنما نالوها برحمته وتبوؤوا منازلها برحمته وجازاهم بمحبته وقُربه ورضوانه وثوابه وكرامته برحمته)[1].

أخي في الله...

(إن كل من تحبه من الخلق ويحبك إنما يريدك لنفسه ولغرضه منك.. والله تعالى يريدك لك... فكيف لايستحي العبد ربه بهذه المنزله وهو معرض مشغول بحب غيره... إن كل من تعامله من الخلق إن لم يربح منك لم يعاملك ولابد له من نوع من أنواع الربح.. أما الله تعالى يعاملك لتربح أنت أعظم الربح وأعلاه.. فالدرهم بعشرة أمثاله إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة.. والسيئة بواحدة وهي أسرع شيء محوًا)[2].

فوالله إنه (من أعجب الأشياء أن تعرفه ثم لا تحبه وأن تسمع داعيه ثم تتأخر عن الإجابة.. وأن تعرف قدر الربح في معاملته ثم تعامل غيره وأن تعرف قدر غضبه ثم تتعرض له.. وأن تذوق ألم الوحشة في معصيته ثم لا تطلب الأنس بطاعته.. وأن تذوق عصرة القلب عند الخوض في غير حديثه والحديث عنه ثم لا تشتاق إلى انشراح الصدر بذكره و مناجاته.. وأن تذوق العذاب عند تعلق القلب بغيره ولا تهرب منه إلى نعيم الإقبال عليه والإنابة إليه.. وأعجب من هذا علمك أنك لا بد لك منه وأنك أحوج شيء إليه وأنت عنه معرض وفيما يبعدك عنه راغب)[3].

إخواني في الله...

(١) فتح الرحيم الملك العلام في علم العقائد والتوحيد والأخلاق ص ٢١-٢٢.. الشيخ عبد الرحمن السعدي.

(٢) الداء والدواء الإمام ابن القيم رحمه الله.

(٣) الفوائد ص ٥٠.

(أليس المحب يتمنى الخلوة مع حبيبه.. فأين قلوبنا من الخلوة بالله؟! أوليس المحب يضحي من أجل حبيبه؟!.. فأين تضحيتنا من أجل الله ومن أجل إعلاء كلمته ودينه؟!.. ثم أليس المحب يسعى في رضا حبيبه ويتحمل من أجل رضاه ما قد يشق على نفسه؟.. فهل نحن نراقب مواضع رضا مولانا وحبيبنا لنسرع إليها؟.. وهل نراقب مواضع سخطه لنفر إليه منها ونرتمي في ساحات رحمته وننزل به حاجاتنا ونشكو إليه بثنا وأحزاننا وضعفنا ونطرق على بابه لعله يتكرم ويفتح لنا نحن المذنبين المقصرين المشفقين المساكين؟!)[١].

---

(١) من مقال أين الله في قلوبنا.. د. علاء السيوفي.

وأثمرت الكلمات

* عندما تتقرب إلى ربك بأنواع العبادات وأصناف القرُبات وتبتعد عن المعاصي والسيئات تعظيما لمقام الله عز وجل واجلالاً لجنابه وخشية من غضبه وعقابه ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا﴾ [الإسراء ٥٧].

* عندما تصف الله عزوجل بما وصف به نفسه وبما وصفه به رسوله من الأسماء والصفات الجليلة من غير تحريف ولا تعطيل، ومن غير تكييف ولا تمثيل.. وتنزهه وتعظمه سبحانه من مشابهة أحد من خلقه.. فتثبت له عظمته وعلمه وقدرته واستواءه ووجهه وغير ذلك من صفاته نافيا عنه المشابهة بخلقة على حد قوله سبحانه ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشوري ١١].

* عندما تعظم حرمات الله باجتناب ما حرمه الله من الربا والزنا والرشوة والكذب والغيبة والكبر والحسد و... ﴿وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ عِندَ رَبِّهِ﴾ [الحج ٣٠].

* عندما تستسلم لله عزوجل في كل أمور حياتك سواء فيما كلفك به ربك من العبادات والطاعات أو ما يبتليك به من صنوف المحن والإبتلاءات.. ويكون شعارك في كل ذلك ﴿سمعنا وأطعنا﴾.. فلا تحتاج إلى من يقنعك بترك معصية نهاك ربك عنها.. ولا تحتاج الفتاة إلى اقتناع أولاً قبل ارتداء الحجاب.. ولا تسأل إذا ابتلاك ربك بما تكره لم حدث ذلك؟!

* عندما تغضب لله عز وجل إذا انتهكت محارمه، وانتقصت شعائره وحورب كتابه، وعودي دعاته.. وأن تجد في قلبك حزنًا وحسرة إذا عُصِيَ الله تعالى في أرضه.

* عندما تنزل بك المحن وتشتد عليك الفتن وتضيق بك الأمور وتنقطع بك الأسباب فتلجأ إلى العزيز الوهاب تشكو إليه حالك وتبث إليه شكواك ﴿أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ﴾ [النمل ٦٢].

* عندما لا تنظر إلى صغر الخطيئة ولكن تنظر إلى عظم من عصيت فيدفعك ذلك إلى الفرار من المعاصي والسيئات فرارك من الأسد.. وإذا غلبتك شهوتك ووقعت في المعصية.. سارعت دون تردد أو تأخير إلى التوبة والإنابة ﴿وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا﴾ [الفرقان ٧١].

* عندما تعظم كتاب الله عزوجل.. فلا تكتفي بتجويد قراءته فقط وإقامة حروفه.. ولكن بتدبر آياته والتفكر في حكمه وأسراره ومواعظه.. وأن تحل حلاله وتحرم حرامه وتمتثل أوامره وتجتنب نواهيه وتعتبر بقصصه وأمثاله.. وتخشع عند تلاوته.. وتنشغل بتعلمه وتعليمه والعمل به.

* عندما تعظم نبيك ﷺ.. وذلك بمحبته وتوقيره وتقديم أمره ونهيه على أي كائن كان من المخلوقين والإتباع لسنته والذب عن شريعته.. والتعرف إلى سيرته وذكر مناقبه والصلاة عليه ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب ٢١].

* عندما تنطرح للجبار وتتذلل للقهار.. وتسجد للكبير المتعال معلنا أن العظمة لله.. والكبرياء لله.. والاستعلاء لله والقوة لله.. والجبروت لله والملك لله.. والعبودية لله ﴿وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [الجاثية ٣٧].

* عندما تصبح وتمسي وليس لك هم إلا الله وحده.. فتفرّغ قلبك لمحبته، ولسانك لذكره، وجوارحك لطاعته ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ﴾ [الأنعام ١٦٢-١٦٣].

* عندما تستقل طاعتك وتستصغرها كلما كثرت.. وتري حسناتك فضل واحسان وتوفيق من الله حيث يسرها لك وأعانك عليها ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ [النحل ٥٣].

قبل أن تغلق دفتي الكتاب

أخي القاريء:

ها أنت قد انتهيت من قراءة الكتاب.. ثم ماذا بعد؟ هيا دع الكتاب جانبا.. ثم اسجد لله عزوجل.. نعم اسجد بقلبك قبل جوارحك...

* اسجد بقلبك وجوارحك سجدة تمنحك لباس الذل والفقر اللذان هما أعظم ما يتصف العبد مع ربه عز وجل..

* اسجد لربك عزوجل معلنا الإفتقار والإنطراح للجبار والتذلل للقهار

* اسجد للملك جل وعلا لتعلن انضمامك إلى قافلة الساجدين وركب المحبين

* اسجد لخالقك.. فإنك لن ترتفع عند الله إلا إذا انخفضت له ساجدًا.. ولن تجد العزة إلا إذا ذللت له ساجدا.. ولن تحصل على الغنى إلا إذا افتقرت له ساجدًا.. فالسجود رفعة وعزة وغنى وقوة.

* اسجد لربك ممتثلاً لأوامره ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَـٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِهَا خَرُّواْ سُجَّدًا وَسَبَّحُواْ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ [السجدة ١٥].

* اسجد لله عزوجل واهتف في ضراعة وخشوع: أتيت إِليكَ يا رَبَّ العِبَادِ بإفلاسِي وذُلِّي وانْفِرَادِي وهَا أَنَا واقفٌ بالبابِ أَبْكِي زَمَانًا مَا بَلَغْتُ بِهِ مُرَادِي عَسَى عفوٌ يُبَلِّغُنِي الأَمَانِي فقَدْ بَعُدَ الطريقُ وقَلَّ زَادِي ومَالِي حِيْلَةٌ إِلا رَجَائِي ومنْكَ على المَدَى حُسْنُ اعْتِقَادِي ولَوْ أقصيتَنِي وقَطَعْتَ حَبْلِي وحَقّكَ لاَ أَحُولُ عن الوِدَادِ فجُدْ بالعَفوِ يَا مَولايَ وارْحَم عُبَيْدًا ضَلَّ عن طُرقِ الرَّشادِ وقَدْ وَافَى بِبابِكَ مُسْتَجِيْرًا يَخَافُ مِن القَطِيعَةِ والبِعَادِ.

ثناء ودعاء

• **إلهي**:

أنا الفقير في غناي فكيف لا أكون فقيرًا في فقري.

• **إلهي**:

أنا الجاهل في علمي فكيف لا أكون جهولاً في جهلي.

• **إلهي**:

أنت الغافر وأنا المسيء.. وهل يرحم المسيء إلا الغافرُ.

• **إلهي**:

أنت الرب وأنا العبد.. وهل يرحم العبد إلا الرب.

• **إلهي**:

أنت المالك وأنا المملوك.. وهل يرحم المملوكَ إلا المالكُ.

• **إلهي**:

أنت العزيز وأنا الذليل.. وهل يرحم الذليلَ إلا العزيزُ.

• **إلهي**:

ماذا وجد من فقدك.. وما الذي فقد من وجدك...

آهٍ من كثرة الذنوب والعصيان... آهٍ من كثرة الظلم والجفاء

• **إلهي**:

ما أردت بمعصيتك مخالفتك.. ولا عصيتك إذ عصيتك وأنا بمكانك جاهل ولا لعقوبتك متعرض.. ولا لنظرك مستخف.. ولكن سوّلت لي نفسي وساقتني شهوتي

وأعانني على ذلك استعدادي وغَرّني سترك المَرْخِيّ علي فعصيتك بجهلي وخالفتك بقبيح فعلي.. فمِن عذابك الآن مَن يستنقذني أو بحبل من أعتصم إن قطعتَ حبلك عني؟

• **إلهي:**

أنا البائس الفقير.. المستغيث المستجير.. الوجل المشفق.. المقر المعترف بذنبه.. أسألك مسألة المسكين وأبتهل إليك ابتهال المذنب الذليل وأدعوك دعاء الخائف الضرير.. من خضعت لك رقبته وفاضت لك عيناه وذل جسده ورغم لك أنفه.

• **إلهي..**

أنا عبدك وابن عبدك.. قائم بين يديك.. متوسل بكرمك إليك.. إن كان صغُر في جنب طاعتك عملي فقد كبر في جنب رجائك أملي.

أنا عبدك المسكين كيف أنقلب من عندك محرومًا وقد كان حسن ظني بجودك أن تقبلني بالنجاة مرحومًا.

• **إلهي:**

كيف أدعوك وقد عصيتك.. وكيف لا أدعوك وقد عرفتك.. مددت إليك يدًا بالذنوب مملوءة ويمينًا بالرجاء مشحونة.. حُقّ لمن دعا بالندم تذللاً أن تُجيبه بالكرم تفضيلاً.

• **إلهي:**

يا مفرجَ كربِ المكروبين فرج عني ما أنا فيه ﴿لاَّ إِلَهَ إِلاَّ أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾.

• **إلهي:**

مالـي سوى فقري إليـك وسيلـة بـالإفتقار إليك فقري أدفـــع

مالي سوى قرعي لبابـك حيلــة فلئـن رُدِدْتُ فـأي باب أقـــرع

ومن الذي أدعـو وأهتـف باسمـه إن كان فضلك عن فقيـرك يمنـع

حاشـا لجودك أن تقنـط عاصيـا الفضـل أجـزل والمواهب أوســع

• **إلهي**:

أتيتك راجيا يا ذا الجلال ففرّج ما ترى من سوء حالي

عصيتك سيّدي ويلي بجهلي وعيب الذنب لم يخطر ببالي

الى من يشتكي المملوك الا الى مولاه يا مولى الموالي

فويلي ليت أمي لم تلدني ولا أعصيك في ظلم الليالي

فها أنا عبدك العاصي فقير إلى رحماك فاقبل لي سؤالي

عبدك المعتز بذل عبوديته لك

هاني درغام

يسعدني تلقي إقتراحاتكم وملاحظاتكم

Hanydorgham@yahoo.com

www.facebook.com /dr.hanydorgham

أهم المراجع

١- الله أهل الثناء والمجد.. د. ناصر الزهراني.. مكتبة العبيكان - الرياض.

٢- أسماء الله الحسنى آثارها وأسرارها د. محمد بكر إسماعيل.. دار المنار - مصر.

٣- العظمة.. الشيخ عائض القرني.. مكتبة العبيكان - الرياض.

٤- المنهل القدسي في فضائل آية الكرسي.. د. أحمد الشرقاوي.. دار السلام - مصر.

٥- فتح الرحيم الملك العلام في علم العقائد والتوحيد والأخلاق.. الشيخ عبدالرحمن السعدي اعتنى به الشيخ عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر.. دار ابن الجوزي - الرياض.

٦- المفاهيم المثلي في ظلال شرح أسماء الله الحسنى.. وليد بن محمود بن حسن.

٧- دراسات قرآنية.. محمد قطب.. دار الشروق - مصر.

٨- عقيدة المسلم.. الشيخ محمد الغزالي.. دار نهضة مصر.

٩- مع الله.. د. سلمان العودة.. مؤسسة الإسلام اليوم - الرياض.

١٠- في ظلال القرآن.. سيد قطب.. دار الشروق - مصر.

١١- الإيمان.. أركانه، حقيقته، نواقضه.. د. محمد نعيم ياسين.. دار التوزيع والنشر الإسلامية - مصر.

١٢- مدارج السالكين.. ابن القيم الجوزي.. المكتبة التوفيقية - مصر.

١٣- زهرة التفاسير.. الإمام محمد أبو زهرة.. دار الفكر العربي - مصر.

١٤- ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها.. الشيخ عبدالعزيز بن ناصر الجليل.. دار طيبة - الرياض.

١٥- كيف نحب الله ونشتاق إليه.. د. مجدي الهلالي.. مؤسسة إقرأ - مصر.

١٦- آيات الله في خلق الكون ونشأة الحياة في السماء الدنيا والسموات السبع.. د. ماهر الصوفي.. المكتبة العصرية - بيروت.

١٧- تفسير الشعراوي.. الشيخ محمد متولي الشعراوي.. دار أخبار اليوم - مصر

١٨- أسماء الله الحسني الهادية إلى الله والمعرفة به د. عمر الأشقر.. دار النفائس - الأردن.

١٩- موسوعة فقه القلوب.. محمد بن إبراهيم التويجري.. بيت الأفكار الدولية - الأردن.

٢٠- الفوائد.. ابن القيم الجوزي.. مكتبة الصفا - مصر.

٢١ - ركائز الإيمان.. محمد قطب.. دار الشروق - مصر.

وغيرها كثير مما هو منثور في حواشي الكتاب

فهرس الكتاب

صدر للمؤلف

١- متاع الغرور: صيحة تحذير وجرس إنذار ﴿إِنَّمَا الحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾.. فكيف تستسلمون لهذه الحياة الدنيا فتعتبرونها غاية طموحكم الذي تعيشون له؟ كيف تنخدعون بها وقد أرتكم عيانا كيف تقلبت بأهلها الأحوال وخدعتهم الآمال حتي انتهت لهم الآجال قبل أن يحصلوا على ما سيتمنونه من صالح الأعمال؟ فياليت شعري ها هي الدنيا قد زينت بخدعها وفتنت بغرورها وختلت بآمالها وتشرفت لخطابها فالعيون إليها ناظرة والقلوب عليها والهة والنفوس لها عاشقة وهي لأزواجها كلهم قاتلة فلا الباقي بالماضي معتبر ولا الآخر على الأول مزدجر.. فإلى الغارقين في رقدات الغفلة تزودوا قبل النقلة واغتنموا الزمان ووقت المهلة.

٢- رمضان.. واهًا لريح الجنة: عندما هتف الصحابي الجليل أنس بن النضّر رضي الله عنه: [واهًا لريح الجنة] ما أروعه من هتاف.. وما أجملها من صيحة.. ما أحوجنا إلى هذه الصيحة في شهر رمضان حيث تسلسل الشيطان وتفتحت أبواب الجنان وغلقت أبواب النيران.. إنها صيحة تحطم قيود السيئات وتقف في وجه طوفان المغريات وتنفض غبار الغفلات.. إنها صيحة نحتاجها لإحياء القلوب القاسية وإيقاظ الهمم الراكدة.. فإلى أولي الهمم وأرباب العزائم شمروا عن سواعد الجد فهذا رمضان غنيمة فابتدروها وفرصة فانتهزوها... هيا بنا نرفع شعار [لئن بلّغنا الله تعالى شهر رمضان لنريّن الله ماذا نصنع؟].

٣- قلب موصول بالله: لمّا غفل أكثر الناس عن القلب فلا يعلمون عنه شيئا سوي أنه اللحم الصنوبري الشكل المودع في الجانب الأيسر من الصدر المسئول عن ضخ الدم إلى جميع أجزاء الجسم وجهلوا أن القلب محل نظر الرحمن وبصلاحه يكون صلاح الإنسان وبفساده يفسد وهو قارب النجاة وسلم الوصول إلى برالأمان.. جاء هذا الكتاب ليذكر قلبي وقلبك بأنه لا حياة للقلب ولا طمأنينة ولا نعيم إلا في تقوية الصله بالله عز وجل وإخلاص العبوديه له فلن تنعم بجنة الدنيا إلا إذا امتلأ

القلب بجلاله وأنس بقربه وفرح بطاعته واشتاق إلى لقائه.

هذا الكتاب

سياحة إيمانية على مرابع الأنس وساحات الجلال وحدائق الثناء ورياض التسبيح والتهليل... سياحة في رحاب العظمة والجلال والكبرياء.. سياحة في رحاب آية الكرسي.. وما أدراك ما آية الكرسي؟!.. إنها أعظم آية في كتاب الله لاشتمالها على توحيد الله جل جلاله وتمجيده. إنها آية كلها ثناء في ثناء في ثناء... وتعظيم في تعظيم في تعظيم. إنها معين عذب متدفق.. فأين الواردون الشاربون؟ إنها آية تتلألأ بالأنوار الربانية.. فأين المبصرون؟ إنها آية تبصرك بمعالم الطريق في قافلة [ففروا إلى الله).. فأين السالكون المشمرون؟

إنها سياحة في حديقة غناء تسر الناظرين يبتهج بما يري فيها من إشراقات الجمال وفيوضات التنزيه والتقديس والتمجيد.. إنها سياحة في مواكب الجلال والجمال والكمال.. فأين الأعين الناظرة.. والقلوب المبصرة.. والأذهان المتوقدة.. والفطرة السليمة.. والمشاعر الحية والأحاسيس المرهفة؟


وربك فكبر


وربك فكبر